رواية

بَيْتُ العُثْمانْلي

obeikandl.com

بَيْتُ العُثْمانْلي

تأليف : أحمد غالب جاد

الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي

تصميم الغلاف : هناء محمود

مراجعة لغوية: محمد سلامة

مدير النشر: أحمد خطاب

رقم الإيداع: 25960 - 2017

الترقيم الدولى: 978-977-6598-33-1

الطبعة الأولى: 2017

إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712

3aberorg@gmail.com

www.3aber.org

عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

رواية

بَيْتُ العُثْمانْلي

أحمد غالب جاد

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

صديق العمر الشاعر يس النحايفة

الحبيب القاص والروائي عزيز أبو الفتح

الروائية نسمة الجمل

الروائية والمصممة المبدعة التي شرفتني بتقديم الغلاف كهدية هناء محمود

الشاعرة والقاصة القريبة من الروح مروة حافظ

شكرا بحجم الحب

obeikandl.com

إلى أسرتي الصغيرة

شريكة حياتي إيمان
ابنتي وصديقتي وذراعي الأيمن ياسمين
ولدي وسندي وعكازي يوسف
بهجة الدنيا أخر العنقود وعد

لكم ما ليس لسواكم

obeikandl.com

obeikandl.com

لها

قلبي أعظم وأبقى من أي إهداء يُكتَب على الورق

مقدمة

لم يكن بيت العثمانلي مجرد بيت من حجارة و عَمَد وسقف، ولم يكن داود جوهار، حين بدأ في تشييده عام ١٧٥٠، يدري أنه يضع حجر أساس لأسطورة و تاريخ طويل لا يحصيه كتاب ضخم، فضلا عن رواية قليلة الأوراق كتلك التي بين أيديكم. مرت العقود وما زال البيت شاهد عيان على تَغَيُّر الأيام وتقلبات الدهر. كنوز من الأسرار لم يفصح البيت إلا عن النذر اليسير منها، وكأنه استمرأ الغموض واطمئن لتلك الغلالة الأسطورية التي اِلْتَحَفَ بها فزادته بهاءً وجلال. أقدارٌ تغيرت ومصائرٌ تحولت داخل البيت، من عز إلى ذل والعكس. طالته، كما طالت قاهرة المعز، فترات ذبول و ضعف، لكنه كان عصيا متماسكا غير قابل للانهزام، تماما كالقاهرة. بيت العثمانلي بستان من الزهر انتقيت منه هذه الزهرة لأقدمها متمنيا أن يحالفني التوفيق في تقديمها على النحو الذي يليق بها وبكم، فأسأل الله التوفيق والسداد

obeikandl.com

obeikandl.com

ليلة صيفية هادئة في قاهرة المعز، تلك المدينة التي شابت من هول ما رأت على مدار عقود طويلة، لكنها، وللحق، ما زالت تحمل مسحة من جمال. خلت الشوارع من المارة، وأغلقت الوكالات والدكاكين أبوابها. لزم أهل المنطقة بيوتهم تاركين الشوارع لجولات القطط والكلاب. كلبة ترقد على جنبها وقد أسلمت نفسها لصغارها الجائعين يفتشون عن حلماتها في براءة ونعومة، قطط تتحرك بين جنبي الطريق في صراع على بقايا لقمة تركها أحدهم سهوا أو عمدا. مصابيح هزيلة تطلق ضوءًا لا يقوى على اختراق الساتر الليلي المطبق على صدر الجمالية والمناطق المتاخمة لها. خطوات وئيدة لشيخ عائد من المشهد الحسيني بعد أن صلى العشاء. بيسراه عصا يتوكأ عليها فوق أرضية الشارع الحجرية، وبيمينه مسبحة طويلة يداعب حباتها بسبابته وإبهامه. يلهج لسانه بالذكر والتكبير والحمد والتهليل. سكون يتنافى مع تلك الجلبة التي تملأ بيت عزوز (العربجي). على عتبة البيت، يجلس هنداوي القرفصاء، ممسكا عصا خشبية، يتململ بين الغفوة واليقظة. كلما أفاق من غفوته سب ولعن كل شيء. هنداوي هو الابن الأكبر لعزوز العربجي. على يمين هنداوي، يقف حماره الذي لا يتوقف عن تحريك رقبته في كل الاتجاهات في محاولات فاشلة لإبعاد الذباب عن الجروح المتناثرة في جسده. داخل البيت الفقير، فناء واسع غير مسقوف، على يساره فرن طينية ذات كوتين. الكوة السفلى لوضع الحطب اللازم لإشعال الفرن، والعليا لطهي الطعام وخَبْز العيش. تتحرك فتاة في السابعة عشرة من عمرها باتجاه

obeikandl.com

الفرن المشتعلة لتخرج من كوتها العليا إناء يمتلئ بالماء المغلي، سارت مسرعة وهي تحمل الإناء بحذر. تدخل الغرفة التي ترقد فيها أمها تعالج آلام المخاض فتتلقاها أم شَلَش (الداية)، تتناول منها الإناء ثم تأمرها بالخروج من الغرفة. على مبعدة من الغرفة، يجلس راضي وراضية، التوأم غير المتشابه شكلا، يتابعان أختهما التي تكبرهما بعامين وهي تعود من ناحية حجرة الأم، بينما اجتمع ثلاثة أطفال بين الثانية والثامنة على طبق من العسل الأسود وبعض أرغفة الخبز التي خبزتها لهم أمهم في الصباح. على السرير النحاسي ذي العمدان الأربعة، ترقد صفية (الدَلَّالة) وقد أثقلتها ولادتها المتعسرة. تزجرها أم شَلَش قائلة...

.. ما تشدي حيلك يا اختي خلينا نخلص

.. مش قادرة يا ام شَلَش

.. مش قادرة ليه؟! نُغَّة ولَّا بِكْرية؟! ده انتي عاملاها قبل كده ١٤ مرة!

.. مش عارفة فيه إيه المرة دي؟ الواد مزَرجِن ومش راضي ينزل

.. عنده حق! حاسس بالغلب والفقر اللي مستنيه.

تشتد صراختها، ومع كل صرخة ترتعد أجساد الصغار الثلاثة الذين التفوا في دائرة صغيرة منتظرين أخاهم الثامن. يبكي الطفل الأصغر الذي لم يتم بعد عامه الثاني، فتذهب إليه الفتاة التي كانت تحمل الإناء، تضمه إلى صدرها فيهدأ ويسكن تماما. اعتماد، أصغر من هنداوي، وأكبر البنات. الساعد الأيمن لأمها. سمراء، خشنة الشعر، دقيقة الملامح،

obeikandl.com

حظها من الجمال تماما كحظها من الدنيا، قليل، لكنها تحمل كل جينات الأمومة. ما أن انطلق صراخ الوليد حتى هتف الأطفال معبرين عن فرحتهم بالمولود الجديد.

* * *

.... سبحان الله! إزاي شجرة الكافور تطرح تفاح؟!

الداية محقة جدا في دهشتها، فالوليد مختلف تمام الاختلاف عن كل أسرته، عيناه عسليتان، وبشرته بيضاء. قالت الأم بعد أن حوقلت واستعاذت

.... فيه إيه يا ولية، ما لك؟! ما تصلي ع النبي بقلبك

.... عليه الصلاة والسلام يا اختي، صحيح العيال رزق والواد زي القمر

... خمسة وخميسة، إيه المشكلة إنه زي القمر

.... يا ولية ده انتوا أجمل واحد فيكم يسد النفس، قال إيه المشكلة قال!

رغم اعتياد أم هنداوي على لسان صديقتها المقربة أم شَلَش السليط، إلا أنها اغتاظت جدا من كلامها وظلت تتمتم بالمعوذتين، لكنها لم تستطع كتم غضبها فصرخت تنادي ابنها البكري النائم على عتبة البيت

.... يا حِنْجِل، إنت يا بوز الإخص يا اللي اسمك حِنْجِل – حِنْجِل هو اسم الشهرة الملازم لهنداوي منذ أن اكتشفوا أن لديه ساقا أقصر من أختها–

نط حِنْجِل مذعورا عندما سمع صوت أمه فأسرع إليها ملبيا

... أيوه يا امَّه

... جاك مَوْ يشَتَّحك[1] روح يا بهيم نادي المزغود أبوك من عند زغلول الجحش، قول له يخلي عند أهله دم ويبجي يحاسب خالتك أم شلش، بدل ماهو قاعد بيطفح بوظة ويضَحَّك الناس عليه

خرج حِنْجِل وهو يسب ويلعن الدنيا ومن فيها. ركب الحمار واتجه صوب دكان زغلول الجحش. ظل يضرب الحمار بقسوة طوال الطريق، تنفيسا عن غضبه.

..... حِنْجِل....

مِن الناس مَن تظلمه ملامحه ويجبره تكوينه الجسماني على التصرف بطريقة تتناسب وذلك التكوين وتلك الملامح والظهور بمظهر يعبر عنها. حنجل من تلك النوعية، فضخامة جسده المبالغ فيها أضافت له عمرا فوق عمره، فكان يبدو في منتصف الثلاثينيات رغم عدم تجاوزه التاسعة عشرة من عمره. يخشاه أهل الحي جميعا، الأصغر منه يخشى قوته المفرطة وضخامة جسده، والأكبر منه يخشى لسانه السليط. أما من ناحية الملامح، فملامحه غليظة قاسية، عابسة معظم الوقت. حنجل من الأدلة القاطعة على أن الابن البكري به مسحة من هطل، تشعر وكأن لديه حلا ويبحث له عن مشكلة. نادرا ما يبتسم، وإذا ابتسم ازداد وجهه قبحا! حنجل هو تقريبا الإنسان الوحيد الذي يصبح أكثر دمامة إذا ضحك. يعتقد اعتقادا لا شك فيه أن أباه يعامل حماره بطريقة أفضل من تلك التي يعامله بها، بل ويحب حماره ويخاف عليه أكثر منه.

(١) هي بعض الأدعية المبهمة التي تطلقها الأمهات عند الغضب

obeikandl.com

لم يُضْبَط حنجل يوما راضيا عن أي شيء أو أي شخص، فهو ساخط دوما. يشعر أن هناك قوى كونية خفية تضطهده، وأن كل شيء يسير عكس مراده. إجمالا، هو يشعر بمظلومية كبيرة لا يدري سببها. ربما لكونه الابن الأكبر والمتحمل لكل الأعباء التي كان من المفترض أن يتحملها أبوه، فالولد يعمل طيلة النهار في حمل ونقل البضائع والأمتعة، بينما ينام الأب حتى الظهيرة ويسهر حتى الفجر في بوظة زغلول الجحش. أب معاق لا يستطيع عملا ولا يهتم إلا بالكيف والمزاج. فتى في التاسعة عشرة من عمره يعول أسرة من أب وأم وسبعة أخوة. شاب صغير يختبئ خلف ملامح غليظة وجسم ضخم، علمته معارك الشوارع والحارات، والتناحر من أجل لقمة العيش أن يكون فظا لا يقيم وزنا لسن أو مقام، فاستحق عن جدارة لقبي، عديم الذوق وسليط اللسان.

حنجل لا يخشى أحدا أبدا، ولا حتى أباه، لكنه يرتعب من أمه! يقف أمامها كالفأر المذعور، ولا يجرؤ على التحدث أمامها بصوت عالٍ أو مقاطعتها إذا تحدثت. يرى أن أمه هي سنده الوحيد في هذه الدنيا، فهي تدير معه شؤون البيت، وتتحمل معه نفقات المعيشة بما تتحصل عليه من عملها كدلَّالة. دائما ما يستمد قوته من قوتها ولذلك فهو يخشاها حاضرة كانت أم غائبة. أمه أيضا تعامله بنفس المنطق وتنظر إليه نفس النظرة، لكنها لا تعَوِّل عليه في تصريف شؤون الحياة نظرا لحمقه ورعونته، ولذلك فهي تتعامل معه بعنف وقسوة.

الحالة الوحيدة التي يتحول فيها إلى طفل بريء رقيق هادئ جدا، هي تلك الحالة التي تتلبسه إذا رأى مرزوقة ابنة مرعي الفسخاني. يعشقها بجنون ولا

يرى زوجة سواها، ويردد دوما (اللي هيقرب منها هاقتله). دائما ما ينتهز كل الفرص المتاحة للمرور أمام دكان أبيها حتى يراها، ودائما ما يعرض خدماته على مرعي وزوجته، ودائما ما يرفضان تلك الخدمات لسابق علمهما بما يضمر من مشاعر تجاه ابنتهما الوحيدة، وجهره الدائم بحبه لها، فكل من يعرف حنجل، سواء في الجمالية أو في الأحياء المجاورة، يعرف أنه يعشق مرزوقة.

سحب حنجل حماره بعنف وسار مترجلا في طريقه إلى بوظة زغلول الجحش. كان بحاجة للمشي حتى يتحدث إلى نفسه بحرية. رغم سنوات عمره القليلة، إلا أنه كان يفكر بعقلية رب الأسرة الكادح. فم جديد أُضيف إلى تسعة أفواه والحمل يزداد يوما بعد يوم. (وبعدين يا حنجل؟! هتعمل إيه في الغلب ده؟!). خرج التساؤل من صدره ساخنا حارقا، وكأنه بارود نُثِر في جرح طازج. الولد يرى الأمور تزداد سوءا يوما بعد يوم، فالأعباء في ازدياد والأرزاق في تناقص. لوح بعصاه في الهواء بعنف، وكأنه يقاوم خاطرا أزعجه، خاطرا يقول له صراحة؛ ستضيع يا مسكين في زحمة الأفواه والبطون التي لا تتوقف عن طلب ما يسد جوعها، سيبلعك سعيك على أب وأم وسبعة إخوة، لن تستطيع تحقيق حلمك بالزواج من مرزوقة أبدا، ستكون الأولوية لاعتماد، فزواج البنت سترة وهو مُقَدَّم على زواج الولد. ألقى اللوم، كل اللوم على والديه، فكونهما بلا إخوة حملهما على الإفراط في الإنجاب. خمسة عشر مولود في عشرين عاما! سبعة ماتوا بُعَيد الولادة وسبعة عاشوا، والأخير مصيره في يد الله يبقيه أو يتوفاه. اخترق الأزقة والحواري على مهل وبخطوات وئيدة، وكلما مر أمام دكان أو وكالة استحضر

في ذهنه صاحبها وكيف وفر لأولاده عيشة كريمة مريحة وأمَّن لهم مستقبلا كريما كأصحاب عمل وبالتالي ضمن لهم زيجة سهلة ميسورة. كانت تلك الأفكار والتصورات بمثابة الوقود الذي يجعل ناره مستعرة بلا هوادة. زاد حنقه على هذا الرجل ذي الساق الخشبية الذي ضرب بكل شيء عرض الحائط غير مهتم إلا بسهراته ومزاجه. كان على وشك الصراخ سابا ولاعنا له، لولا أنه وجد نفسه أمام دكان البوظة.

* * *

.... بوظة زغلول الجحش.....

يجلس زغلول الجحش بعينه الحولاء على دكة خشبية في آخر الدكان بجوار نصبة البوظة. رجل قصير نحيف ذو بشرة سمراء وأنف مدبب. عينه اليمنى بها حول شديد وشاربه صغير لا يتعدى حدود الأنف من اليمين والشمال. رأسه بها صلع من بداية الجبهة حتى منطقة النافوخ. يضع أمامه صندوقا خشبيا يضع فيه العملات التي يدفعها الزبائن ثمنا للبوظة. يرفض رفضا باتا تقديم الحشيش والخمور، فقد ورث مهنة البوظة كابرا عن كابر. نصبة البوظة عبارة عن سور حجري بارتفاع متر ونصف تقريبا، على هيئة مستطيل ناقص ضلع. فوق الجدار رُصَّت مجموعة متجاورة من الألواح الخشبية. يقف حمامة – صبي المعلم زغلول – إلى النصبة وأمامه ماجور ضخم من الفخار يمتلئ بالبوظة، وعلى جانبي الماجور مجموعة من الأكواب المعدنية إلى جانب مجموعة من الأواني الفخارية المستديرة – القرعة – . يختلف سعر الكوب عن سعر القرعة ولكلِّ زبونه. يدور حمامة على الزبائن

لتقديم البوظة وتحصيل ثمنها. الدكان عبارة عن قبو مستطيل تتدلى من سقفه ثلاثة مصابيح زيتية. بعض الدكك الخشبية رُصَّت على جانبي الدكان لزبائن القرعة، أما زبائن الكوب فيفترشون أرضية الدكان. للأعيان دكاكين أخرى وخمارات وغُرَز، أما دكان زغلول الجحش فخاص بالعمال والفواعلية والحرفيين، وباقي طبقات الفقراء والمهمشين.

وصل حِنْجِل إلى دكان زغلول الجحش كي يبلغ أباه بالمولود الجديد. ربط حماره بالخارج ودخل وعلى وجهه طبقات من القرف يعجز عن نسفها طن من الديناميت. شعر برغبة في التقيؤ عندما هاجمته رائحة الفسيخ والبصل الأخضر، وزكمته رائحة الصنان والعطن. زبائن فقيرة تملأ جنبات المكان. ثياب مهلهلة تغطي أجسادا هزيلة، وجوه عكرة تنضح منها رائحة الفقر والهم، عيون حمراء وعقول غائبة. يجلس كل زبون وأمامه قَرْعَة البوظة وطبق المَزَّة، وتختلف المَزَّة باختلاف الحالة المزاجية والمادية، فمنهم من وضع أمامه صحنًا من الفسيخ وبعض البصل الأخضر، ومنهم من انهمك في صحن فول نابت، ومنهم من اكتفى بالترمس أو الفول السوداني. رغم أصوات الغناء وقهقهات الضحك، إلا أن الفرحة غائبة تماما، فالمكان فقير من الفرحة كفقر زبائنه من المال. مرق حنجل بين المخمورين بطول الدكان متجاهلا دعوات الزبائن، الجدية منها والهزلية، له لمشاركتهم شرب البوظة. سب الجميع بكلمات غير مفهومة وسار حتى وصل للمكان الذي يجلس فيه أبوه فوجده مشغولا بالمباراة القوية بينه وبين دكروري الحداد. وقف عزوز العربجي منتصبا ثابتا دون اهتزاز، رغم ساقه الخشبية وكميات

obeikandl.com

البوظة التي شربها من بداية السهرة، ماسكا بكفيه قرعة البوظة. نظر مليا إلى دكروري وقال

... لو بحر النيل اتحول بوظة ما يهزش عزوز يا دغُف

ثم رفع القرعة إلى فيه ولم ينزل بها إلا فارغة. وقف دكروري بدوره وبين كفيه قرعة البوظة وقال قبل أن يقذفها في جوفه.

.... الدُغُف هو اللي هيقع من طوله دلوقتي يا مقطف

انفجر المتفرجون في الضحك الصاخب وانقسموا قسمين، بين مشجع لعزوز وآخر لدكروري. استمر المتسابقان في شرب البوظة، قرعة تلو الأخرى، دون أن يسقط منهما أحد فيتم إعلانه خاسرا ومن ثم يدفع ثمن البوظة التي شربها الطرفان. لعزوز سمعة كبيرة وصيت لا يستهان به في هذه التحديات، فنادرا ما يخسر، حتى أطلق عليه (أبو دماغ مصفحة). انسجم حنجل مع سخونة المباراة ناسيًا المهمة التي حضر من أجل إتمامها. في البداية، تحمس لأبيه خوفا من الخسارة التي ستكلفه ثمن البوظة وهم في أمس الحاجة إلى النقود، لكن بعد وقت قصير وجد نفسه يشجع أباه بحماس وقوة رغبة منه في ألا يراه مهزوما. لم يستطع دكروري الصمود أمام قوة وخبرة عزوز الطويلة في عالم الكيف، ترنح وقد سقطت القرعة من يديه ثم ما لبث أن دارت به الدنيا فسقط مغشيا عليه وأضيف إلى قائمة ضحايا عزوز العربجي. لمح عزوز ابنه وسط الجمع فاستشاط غضبا وجذبه من ذراعه قائلا

... إنت إيه اللي جابك هنا يا عجل؟!

obeikandl.com

... ما هو.. ما هو

... ما هو إيه يا جاموسة يا ابن الجاموسة، أنا مش قلت لك رجلك ما تعتِّبش هنا خالص

... أمي هي اللي قالت لي أجيلك

.... وعايزة إيه ست الحسن؟ آجي اغسل المواعين يا ولاد الكلب

.... أمي ولدت يا با وبتقول لك تعالى عشان تدفع للداية فلوسها

هنا أفاق عزوز من سكرته وقد تلاشى تأثير البوظة تماما. سأل ولده باهتمام واضح

... طمني يا بوز الإخص واد ولا بت؟

.... واد يا با واد

وهنا حدثت المفاجأة التي لم تكن على بال وخاطر حِنْجِل، انقض أبوه عليه وطبع قبلة قوية على خده قائلا

.... يا وش الخير، إنت ليك حلاوة كبيرة

لم يكن حِنْجِل مصدقا ما حدث، فقد تخيل أن رائحة المكان لعبت برأسه وجعلته يتصور أن أباه قَبَّله ووصفه ب (وش الخير). ودع عزوز صحبة المزاج وخرج بصحبة حنجل وهو يتلقى سيلا من التبريكات على المولود الجديد. طلب من حِنْجِل أن يذهب به إلى (بيت العثمانلي)

سحب حنجل الحمار الذي يمتطيه أبوه وسار متوجها إلى بيت العثمانلي. المسافة بين دكان زغلول الجحش وبيت العثمانلي ليست بالبعيدة. بداخل

obeikandi.com

حنجل بقية من انتشاء بسبب كلام أبيه وقبلته التي طبعها، ولأول مرة، على جبينه. العلاقة بين الولد وأبيه جامدة معقدة، فالأب منشغل دائما بنفسه ولا يعير اهتماما لأحد، يتعامل مع ابنه معاملة صاحب العمل للأجير، والأبن لا يرى للأب دورا في حياته ويتعامل معه معاملة الصابر لمصيبته. عزوز أيضا كانت به حالة غريبة من النشوة منذ أن سمع الخبر، رغم أنها المرة الخامسة عشرة التي تلد فيها صفية، كما أنه رزق إناثا وذكورا، لكن الأمر مختلف هذه المرة لسبب لا يعلمه بعد الله إلا عزوز. قطع عزوز دندنته المزعجة وقال لحنجل...

.... إنت شفت الواد يا حنجل؟

رد حنجل بقرف بعد أن كرمش وجهه

... واد مين؟!!

وكزه الأب بساقه الخشبية قائلا

.....المولود يا عجل يا ابن العجل

رد بنفس التجهم

... لا

واصل الأب دندنته بعد أن سب ولعن الولد واستعاذ من كرمشة وجهه.

عند بيت العثمانلي طلب عزوز من حنجل الانصراف إلى البيت بعد أن دس في يده النقود التي يعطيها بدوره لأم شلش الداية، وبعد أن أكد

obeikandl.com

عليه أكثر من مرة بألا يخبر أمه بموضوع بيت العثمانلي. امتثل حنجل للأمر على مضض، فهو يعرف أنه سيخضع لاستجواب لا قبل له به، فأمه تأبى إلا أن تعرف كل شيء عن كل شيء. ركب الحمار وهو يهمهم بكلام غير مفهوم كالعادة فعاجله أبوه بالسب واللعن

* * *

.... بيت العثمانلي ....

بيت العثمانلي، تلك التحفة المعمارية التي شيدها رجل تركي يدعى داود جوهار قبل قرنين من الزمان، وعاشت فيها عائلته وتوارثها أولاده وأحفاده حتى آلت ملكيتها لجودت باشا جوهار أو التركي، كما كان أهل الحي يلقبونه. باع جودت بيت العثمانلي لرجل يعمل سنَّانا يدعى أبو رجيلة، وذلك في حادثة تكلم وما زال يتكلم فيها كل سكان الجمالية والأحياء المجاورة. تعجب الناس أشد العجب وتساءلوا: كيف لرجل فقير كأبي رجيلة أن يشتري بيتا كبيت العثمانلي؟! بل كيف رضي جودت بما يعرف عنه من حبه لمصر عامة ولبيت العثمانلي خاصة أن يبيع البيت ويترك مصر عائدا إلى تركيا في تطور سريع ومريب للأحداث. تحول أبو رجيلة إلى المعلم أبو رجيلة وصار من الأعيان. والأغرب من ذلك كله هو اختفاء أبو رجيلة في ظروف غامضة، وكما كان شراؤه البيت لغزا كبيرا، كان اختفاؤه لغزا أكبر.

obeikandl.com

صار البيت الآن ملكا خالصا لبهيجة زوجة أبو رجيلة، التي تحولت من مجرد (حفافة) تدور على البيوت إلى تاجرة وصاحبة بيت العثمانلي. حولت بهيجة الطابق الأرضي من البيت إلى حمام بلدي نسائي، وهو الحمام البلدي الوحيد في مصر الذي يقتصر زبائنه على النساء فقط.

كانت بهيجة جالسة في حديقة البيت حين طلب عزوز مقابلتها. امرأة أربعينية جميلة، بضة لدنة، واسعة العينين لا تتخلى عن الكحل أبدا، عريضة الجبهة حلوة المنظر، ينساب شعرها على كتفيها وظهرها طاغيا كأنه الليل إذا خلا من نجومه وغاب قمره. أقبل عليها مشرق الوجه متهللا وقال.

.... حصل يا ست بهيجة حصل

.... هو إيه اللي حصل يا أعرج؟

.... الولية ولدت الحمد لله

ظهر الاهتمام واضحا جليا على وجه بهيجة الجميل وقالت بلهجة متوترة يغلب عليها الشغف

... بجد يا اعرج؟ يا وش الخير، خبر تستحق عليه الحلاوة

.... أنهي حلاوة بالظبط؟!

عبس وجهها فجأة من مزحته فشعر بالحرج، لكن لمعت عيناه لما سمع كلمة حلاوة وحاول أن يبلع ريقه قائلا

... كفاية رضاكي يا ست الكل

حدجته بنظرة تحمل كل معاني الازدراء وقالت بلهجة محذرة

obeikandl.com

.... بس قبل الحلاوة والرضا والذي منه لازم نتفق الأول
قال لاهثا وقد سال لعابه
... متفقين إن شاء الله يا ستنا مش هنختلف
...الواد يتسمى بهيج
... بهيج؟! ماشي ماشي ما يضرش
ابتسمت ابتسامة الظفر بما أرادت ثم استطردت
... خد الفلوس دي هات له كل احتياجاته وبعد إسبوع هبعت لك خروف تدبحه يوم السبوع بتاع بهيج
تناول منها المال وخرج داعيا لها بالعمر الطويل

***

عاد إلى بيته فرحا سعيدا بالغنيمة التي حصل عليها من بهيجة، لكن فرحته زالت واختفت كل ملامح السعادة من وجهه بمجرد رؤيته لزوجته – التي وضعت وليدها منذ ساعتين – وهى جالسة على عتبة الباب وفي يدها المقشة البلح[1]، وعلى وجهها كل ملامح الغل والتحفز. على يمينها، افترش حِنْجِل الأرض مطرقا برأسه وفي يده سرج الحمار. أدرك أن ابنه الغبي فضح سره، وأدرك أيضا أن ليلته لن تمر بخير. اقترب من حِنْجِل وعاجله بصفعة على قفاه قائلا وهو يتصنع الغضب.

... يا ابن الكلب يا عجل، أقول لك نزلني على جنب عشان مزنوق وعايز أفك ماية، تروح سايبني في الشارع وماشي بالحمار يا ابن الحمار.

(١) المقشة البلح: هي مكنسة تصنع من عراجين النخل بعد إفراغها من التمر

obeikandi.com

حاول حِنْجِل أن يفيق من صدمة القفا، حاول أن يتكلم، لكن كعادته إذا غضب أو خاف تمتم بكلام غير مسموع أو مفهوم. قبل أن يفيق من الصدمة أو يتكلم، فوجئ بصفعة أقوى! كانت الصفعة تلك المرة من أمه التي صرخت في وجهه

... أربط الحمار مكانه يا عجل وغور نام

تحرك الولد دون أن ينطق بحرف، وبالفعل دخل وذهب لينام. شعر الرجل وكأن الصفعة كانت على قفاه هو، فقرر أن يطأطئ للريح لتمر تلك الليلة العصيبة على خير، فهو يعرف زوجته حين تغضب. رسم ابتسامة باهتة على وجهه قائلا

... حمد لله ع السلامة يا ام العيال، مبروك ما جالك، تعيشي وتفرحي بيهم يا رب

تحركت المرأة قليلا لتفسح له الطريق. قالت وكأنها لم تسمع حرفا مما قيل

... أدخل يا معدول ليلتك زي وشك

قام الرجل بتنفيذ الأمر دون أن ينبس بكلمة. كان حريصا ألا يغفل لحظة عن يدها التي تمسك بالمقشة. أغلقت المرأة الباب لتبدأ المعركة الحامية. كانت بالفعل معركة رهيبة، استخدم فيها الطرفان كل الألفاظ المحرمة دينيا وأخلاقيا، ووصلت حد التشابك بالأيدي واستخدام الأدوات المتاحة في البيت، إلا أن الغلبة كانت للمقشة، فالمقشة البلح سلاح فعال جدا في المعارك النسائية، بالإضافة طبعا للسلاح التقليدي غير القابل للإحالة إلى

obeikandi.com

المعاش، وهو الشبشب. كانت ليلة شهيرة جدا، يعرف تفاصيلها كل أفراد البيت، ويعرفها أيضا معظم سكان الحارة الذين جمعتهم الضوضاء والجلبة التي أحدثتها المعركة. ماضي الرجل غير المشرف بين الراقصات جعله دائما موضع شك واتهام، بالإضافة إلى كره زوجته لبهيجة، فهي دائما ما تصفها ب – المرأة العايبة – التي ليس لها رجل يحكمها. لم يكن ذلك رأي صفية فقط، بل كان رأي معظم نساء المنطقة. مهنة بهيجة جعلتها موضع شبهة، فالحفافة تقوم بإزالة الشعر غير المرغوب فيه من أجساد النساء باستخدام مادة تعرفها النساء باسم – الحلاوة – ولأن النساء تتعرى أمام بهيجة، ولأن الحديث يتعمق أحيانا ليصل للحديث عن الجنس والرجال، كل ذلك جعل سمعة الحفافة مشوهة بين الرجال والنساء على حد سواء. الحقيقة أن ذلك لم يكن السبب الوحيد للخوف من بهيجة، لكن الطريقة التي ظهرت بها بهيجة كانت مريبة جدا. كان زوج بهيجة يدور على الحارات والشوارع وعلى كتفه حجر سن السكاكين. فجأة، ودون أية مقدمات، اشترى زوجها بيت العثمانلي من صاحبه التركي. أصبح أبو رجيلة بين يوم وليلة مالكا لبيت العثمانلي. رغم تعامل كل نساء المنطقة مع بهيجة، ورغم تظاهرهن بصداقتها، إلا أنهن كُنَّ يتوددن إليها اتقاءً لشرها، فهي تعرف كل أسرار بيوت المنطقة، كما أنهن يخشين منها على رجالهن. كل ذلك يفسر سر غضب صفية عندما عرفت بذهاب زوجها لبيت العثمانلي.

في خضم المعركة، استغل العربجي الموقف وقال لزوجته متحديا أنه قرر أن يسمي الولد – بهيج – . اشتعلت المرأة أكثر واتَّهمته بأنه يريد أن يسمي

obeikandl.com

الولد باسم المومس التي يزني بها، وأقسمت برأس أبيها أن الولد سيكون اسمه – عكاشة – ، لكن الرجل حسم الموقف بأن أقسم يمين الطلاق أن الولد لن يسمى إلا – بهيج – .

لم يكن يمين الطلاق هو الرادع للمرأة، لكن النقود هي التي كانت رادعة. يعرف الرجل مفاتيح زوجته، فقام بزغللة عينيها بالمال الذي حصل عليه من بهيجة – بعد أن اختلس نصفه – قال في مشهد تمثيلي بديع أنها ظلمته عندما اتَّهمته بأنه على علاقة ببهيجة. أخبرها أنه لم يذهب إلى هناك إلا لأنها وعدته أن تساهم بالمال عند الولادة، شرط أن نسمي المولود بهيجة إذا كانت بنتا، وبهيجا إذا كان ولدا، كما أنها وعدته بذبح خروف يوم السبوع. أفقد سلاح المال المرأة كل أسلحتها. انتهز الرجل الفرصة وبدأ اللعب على وتر الفقر والحرمان، والعيال المحتاجين للطعام والملابس. أخبرها أن بهيجة ستساعدهم بالمال لأنها لم تنجب، كما أنها تملك الكثير وما يأتي منها خيرا منها. نجح أيضًا أن يقنعها بقبول بهيجة كضيفة كلما أحبت أن ترى الولد لأنها لن تأتي بيدين فارغتين.

لم تنم صفية ليلتها ولم يهدأ لها بال. تقاذفتها أمواج الشك وقذفت بها بعيدا فتلقفتها دوامات الحيرة والتخبط. تشم رائحة مؤامرة دبرت بليل بين عزوز وبهيجة، فما الذي دفع عزوز للذهاب إلى بيت العثمانلي بهذه السرعة ليخبر بهيجة بخبر الولادة؟ وما الذي جعله غير قادر على الانتظار ولو للصباح؟ ومتى تم الاتفاق بينهما على الاهتمام بالمولود؟ أسئلة عديدة تسعى برأسها كحيات لا تهدأ. لا تشك بأن هناك علاقة محرمة بينهما،

obeikandi.com

فعزوز ليس هو الرجل الذي يغري امرأة كبهيجة، ولكن ماضيه السيء يجعله محل شك في كل المواقف. يساورها شك يقترب من اليقين أن المقصود من تلك المؤامرة المبهمة ليس الطفل، بالطبع ليس هو الهدف المباشر، إنما هي المقصودة، هي حسابات قديمة تريد بهيجة تصفيتها.

يبقى السؤال الأهم والذي لم تجد له صفية جوابا شافيا، ما هو الاتفاق الذي تم بينهما بالضبط؟ هى لا تستبعد شيئا عن عزوز، فهي تعرفه جيدا، سواء بماضيه المبهم قبل خروجه مطرودا من بلدته، أو بماضيه المعروف قبل خروجه من شارع محمد علي، أو حتى بما عاينته بنفسها خلال عشرين عاما من الزواج. عزوز كتاب مفتوح، أما بهيجة فهي كبحر في ليلة شتوية مظلمة، لا ولم ولن يستطيع أحد سبر غورها ومعرفة نواياها أو طريقة تفكيرها.

ضمت رضيعها وكأن هناك من يتربص بها منتظرا أن تغفل عنه ليخطفه. خافت وهي التي لم تعرف معنى للخوف طيلة حياتها، فهي لم تخف حينما ماتت أمها وتركتها طفلة دون التاسعة وحيدة بلا إخوة، بل على العكس أهلت نفسها لتكون ست الدار والمدبرة لشؤونه. كانت على قدر كبير من الشجاعة حينما قررت من نفسها أن تساعد أباها في عمله ففعلت ما يصعب على أقرانها فعله. عاد أبوها من عمله فوجد ما لم يكن يتوقع أبدا أن يراه في يوم من الأيام، وجد صفية في انتظاره وقد قصت شعرها كالفتيان وارتدت ملابس الفتيان! ألجمته المفاجأة فأخذ يتطلع إلى ابنته غير مصدق لما يراه. قال مستنكرا بعد أن استفاق من دهشته.

obeikandl.com

.... إيه يا بت اللي انتي عاملاه في نفسك ده؟!

... أنا مش بت، أنا من النهارده ولد

... ولد؟!!!

.... أه ولد، وهشتغل معاك

ضحك ضحكة فاضت منها عيناه. هو يتمنى ولدا يساعده في عمله، لكنه سعيد وراضٍ أن لديه ابنة حنونة بارة بأبيها تشعر به وتجتهد لمساعدته. ضحك لتفكير ابنته في أن تساعده بهذا الشكل وشعر بالفخر والاعتزاز، وبكى أسفا على ابنته التي تضحي بطفولتها وأنوثتها من أجله. قال مهونا عليها.

... إنتي بنت، وبنت زي القمر كمان، وحرام تعملي في نفسك كده

... عايزني ما اعملش في نفسي كده؟

... طبعا

... يبقى تتجوز

فاجأه طلبها الذي لم يكن يتوقعه أبدا، فهي تعرف أنه يرفض الزواج بعد أمها رفضا قاطعا، رغم نصائح جميع من حوله. حاول ضبط أعصابه المهتزة من أثر كلام ابنته وقال.

... مستحيل، ما فيش ست هتدخل البيت بعد زبيدة

قالت وهي تبكي

.... ومستحيل صبي يشتغل معاك غيري

obeikandl.com

لم يتمالك نفسه بعد هذا الكلام فجذبها لحضنه وبكى وبكت.

لم تخف أيضا عندما تنازلت عن اسمها وأطلقت على نفسها اسم بندق. صارت بندق العربجي وتحملت نظرة الاستنكار في عيون كل المحيطين بها وسخريتهم وتنكيتهم السخيف. فرضت عليهم نظرة الاحترام بشخصيتها وصوتها الأجش ومجابتها لكل المشاكل والمضايقات باللسان وأحيانا بالتشاجر والعراك. نجحت في حل كل المشكلات التي واجهتها دون أن تشرك أباها، فقد تعودت في سنوات طفولتها الأولى عندما خرجت إلى الحارة أن تحل مشكلاتها بنفسها، تَضرب وتُضرب دون بكاء أو حتى شكوى. مرت بكل ذلك دون خوف فلِمَ شعرت بالخوف الآن؟!. الحقيقة أن صفية لم تتغير ولم تضعف، لكن الذي تغير هو البيت، في الماضي كان البيت قويا يمدها بالقوة لوجود أبيها الذي يدعمها دعما مطلقا ويساندها ماديا ومعنويا، أما الآن ففي البيت ثغرة تضعفه وتفتح فيه طاقة يتسرب منها الخطر، تلك الثغرة هي عزوز. وهن البيت فخافت من لم تعرف للخوف طعما طيلة حياتها.

* * *

لم تختلف ليلة عزوز كثيرا عن ليلة صفية. في الحوش الخارجي، على الدكة الخشبية القريبة من الفرن، فرش عزوز بعض الأسمال واستخدم بردعة الحمار كوسادة. حاول أن ينام لكن هيهات، فما حدث بينه وبين صفية ليس بالشيء الهين. لم تكن المرة الأولى التي تصل بينهما الأمور للتشابك بالأيدي، فهذا شيء اعتيادي يحدث مرارا، لكن هذه المرة كان الأمر

مختلفا. هو يعرف زوجته جيدا، لذلك أيقن أن الغيرة ليست هي السبب فيما حدث. كانت تقاتل كأم لا كزوجة وأنثى، كانت تدافع عن ابنها وليس عن زوجها. لم ير تلك النظرة التي سكنت عينيها إلا مرة واحدة من قبل، وذلك عندما نشبت مشاجرة عنيفة بين حنجل وأحد أصحاب الدكاكين، يومها تكالب عليه صاحب الدكان وأولاده، ضربوه وضربهم. حين وصل عزوز إلى مكان المشاجرة كانت صفية وصلت واشتبكت معهم، جن جنونها حين رأت الدماء تسيل من رأس ولدها فاستخدمت أظافرها وأسنانها وكأنها لبؤة تدافع عن صغارها. فشلت كل المحاولات لتهدئتها إلا بعد أن أسالت دماء الجميع. يومها لمح في عينيها تلك النظرة التي رآها الليلة. وقتها شعر بالقوة والفخر والاطمئنان، أما الليلة فالخوف الرهيب كان هو الشعور الذي اجتاحه. لم يكن عنده شك في أن قلب زوجته يشعر بخطر ما يحدق بوليدها. خلع ساقه الخشبية ببطء حتى يتخفف من ثقلها وضغطها على ما تبقى من ساقه. نظر إلى الالتهابات التي تغطي فخذه بسببها فتوجع واشمأز. هم برفعها ليطيح بها بكل قوته، لكن تذكر حاجته لها فتراجع ووضعها بجانب الدكة. ظل ينظر إليها طويلا وكأنه يحدثها. يبتسم حينا ثم ما يلبث أن تنقبض ملامحه. يرى أن صفية كتلك الساق تماما، رغم ما تسببه له من ألم وضيق إلا أنه لا يقدر أبدا على الاستغناء عنها. يدين بالفضل الكبير لها ولأبيها، فأبوها رحمة الله عليه أواه حين كان طريدا لا مأوى له، وأطعمه حين كان لا يجد ما يسد به جوعه، واتخذه ولدا له وزوجه ابنته الوحيدة دون أن ينظر لفقره وانقطاع أصله، صفية أيضا لم تتخل عنه حتى بعد

obeikandi.com

الحادثة التي خسر فيها ساقه وأقعدته عن العمل واحتاجت الكثير من المال والرعاية، بل على العكس تماما وقفت بجانبه وخرجت للعمل في مهنة العربجية مرة أخرى كما فعلتها من قبل في طفولتها، وظلت على هذه الحال حتى كبر حنجل وأصبح قادرا على العمل فتركت له العربة وعملت هي دلالة تدور على البيوت والأسواق والتجار لتشتري وتبيع الأقمشة. يدرك تماما أن صفية كما هي لم تتغير، هي صفية كما رآها أول مرة، أنثى قوية الشخصية عنيفة لا تخشى أحدا ولا تهاب المواجهات مهما كانت قوة الخصم أو صعوبة المشكلة، هي هي نفس الصفات التي أحبها بسببها والتي نفعته في الأزمات والحفاظ على البيت حتى الآن، هي هي نفس الصفات التي أصبح يعاني منها الآن، فصفية تحكمها العاطفة وتتحكم في تصرفاتها دون النظر للمصلحة أو اعتبارات أخرى، فبيتها وسكانه خط أحمر لا تسمح لأحد أن يتخطاه ولا تتساهل أبدا مع ما يهدد هذا الكيان بما يحويه. إذا كان ما حدث الليلة بينه وبين صفية شيئا صعبا فالقادم أصعب والمواجهات ستكون عنيفة، هكذا قال بينه وبين نفسه قبل أن يجبره التعب والإجهاد على النوم.

لم يكن الأولاد بمنأى عما حدث، فقد سمعوا جيدا اتهامات أمهم لأبيهم، سمعوها واستقرت في وجدانهم ومن الطبيعي أن يتأثروا بها. حنجل، ورغم معارضته الدائمة لأي شيء يفعله أبوه، ورغم مساندته الدائمة لأمه، إلا أنه استحسن فكرة إنفاق بهيجة على أخيه الوليد، حتى لو وصل الأمر إلى أن تأخذه عندها في بيت العثمانلي لتتولى تربيته بنفسها. هناك خير له وأفضل من عيشة الفقر في بيت العربجي، كما أن الخير سيعم على الجميع

obeikandi.com

وسينالهم من الحب جانب. لو فعلت بهيجة ذلك لخففت عن كاهله حملا هو في حل عن حمله، هكذا تمنى حنجل بينه وبين نفسه. عبرت اعتماد عن حزنها لما حدث بالبكاء الحار، يحزنها ويؤثر في نفسها أي تلاسن أو تشابك بالأيدي بين والديها. ربت كل إخوتها الأصغر منها وتعتبر نفسها أمهم الثانية. لم ترث من أمها إلا حبها للبيت وأفراده، لذلك فقد راعها مجرد التفكير في أن أخاها الوليد، الذي لم تعتد عليه بعد، سوف يرحل عن بيته ليشب ويترعرع في بيت سوى بيته. تمنت من الله أن يكون كل ذلك مجرد هواجس لا أساس لها. التوأم، راضي وراضية، وافقا جدا على الفكرة ففيها الخير كل الخير للوليد ولهم أيضا. عبر راضي بتحفظ عن إعجابه بالفكرة ما دامت في صالح الجميع ولن تضر أحدا. وافقته توأمه في رأيه وأضافت، ما معناه، أن هذا التصرف ينم عن حنكة وحكمة وفهم تام لمقتضيات الأمور، بل رأت أباها مضحيا من أجل المصلحة العامة للأسرة، كما رأت أن أمها تحكم على الأمور بعاطفة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل وتنظر للأمر بطريقة فيها الكثير من الأنانية عكس نظرة أبيها الواقعية التي تراعي الصالح العام. هي امرأة ظالمة تقودها عاطفتها الحمقاء، هكذا كانت وجهة نظر راضية.

* * *

على الجهة الأخرى، هناك في بيت العثمانلي، تجلس بهيجة على كرسيها الأثير في غرفتها التي لم يدخلها أحد غيرها من قبل. لوحة زيتية عملاقة بحجم الجدار المقابل لسريرها. صورة بالحجم الطبيعي لبهيجة وهي ترتدي

obeikandl.com

رداءً أبيضا فضفاضا بأكمام واسعة شفافة، وعلى كتفيها وشاح أبيض موشى بنجوم زرقاء. تتطاير خصلات شعرها وكأن ريحا قوية تتلاعب بها. يمشي من خلفها فرس أبيض جميل وضَّاء الغرة وعلى ظهره جثة رجل تنزف دما غزيرا. بيمينها خنجر ملطخ بالدم وبشمالها لجام الفرس. تسير بفرسها وقتيلها على شاطئ من الرمل الأبيض الناعم، بينما يظهر شخصان يقاومان الغرق في مياه البحر، رجل وامرأة. تشعل سيجارة وتسحب نفسا بكامل سعة رئتيها ثم تبدأ بطرد الدخان على مرات متقطعة وكأنها تلاعبه وترسم به أشكالا في الهواء. تشعر بانتشاء غير طبيعي منذ أن خرج عزوز من عندها فرحا بالمال. اليوم وضعت بهيجة حجر الأساس وأطلقت شارة البدء للمعركة التي طال انتظارها بينها وبين صفية. بالطبع سمعت بما دار بين عزوز وصفية من تلاسن وتشابك بالأيدي وسرها ذلك أشد السرور، أدركت أن كرة اللهب التي قذفتها بدقة إلى بيت العربجي بدأت في إشعال فتيل الفتنة. تدرك تماما أن المعركة لن تكون سهلة بالمرة، فالخصم عنيد صلد لا يُكْسر، لكنها لا تخشى تلك المعارك بل على العكس تماما تحبها وتشتاق إليها بين الحين والآخر. لن تكون هذه المعركة أصعب من معارك كثيرة خاضتها وانتصرت فيها، وبيت العثمانلي شاهد على ذلك. ترى بهيجة أن الانتصار العظيم هو الذي يتحقق على خصم قوي بعد معركة طويلة صعبة كثيرة الجولات. صفية هي الخصم الوحيد الذي لم يُهْزَم أمام بهيجة، بل هي الوحيدة التي هزمت بهيجة مرارا وتكرارا. ترى بهيجة أن كل ما كان متوفرا لصفية كان ينقصها هي، وكل ما كانت تتمتع صفية به كانت هي

obeikandi.com

بحاجة إليه. نعم كانتا تعانيان نفس الظروف والفقر، وكانتا في نفس العمر تقريبا، ونشأتا في نفس الحي، لكن صفية كانت أحسن منها حالا وأوفر حظا. صفية نشأت بين أبويين متحابين ومتعاونين، أب قوي يكسب رزقه بعرق جبينه ولا يبخل على بيته بشيء، وأم قوية الشخصية تدير شؤون منزلها على أكمل وجه، بل تساعد زوجها في عمله أيضا. الحي كله كان يعرف تمام المعرفة كيف كان عكاشة العربجي محبا لزبيدة زوجته وأم ابنته الوحيدة صفية. أما هي فنشأت بين أبوين بعيدين عن بعضهما بُعْد السماء عن الأرض. أب سكير متسلط مسطول عاطل لا يرى إلا نفسه ولا يهتم إلا بمزاجه وشهواته، رجل لا يحمل هما لأي شيء إلا قرعة البوظة وسيجارة الحشيش وعاهرة يعاشرها! وأم ضعيفة مسكينة معدومة الشخصية، تعمل خادمة في بيت العثمانلي لتوفر احتياجات ابنها وابنتها ومن قبلهما احتياجات زوجها العاطل. لا تنسى بهيجة أبدا زياراتها مع أمها وهي صغيرة إلى بيت العربجي، كانت أمها دائمة الشكوى والبكاء أمام زبيدة، تحكي لها تفاصيل مأساتها مع زوجها العربيد، كان الكلام خناجر تغرز في كبد بهيجة، لم تكن تحب أباها على أية حال، لكن كان يسوؤها ذم زبيدة له، رغم اقتناعها أنها لم تقل إلا الحقيقة، لكنه أبوها. بهيجة لا تحب حتى أمها! فهي تكره الضعف وأمها كانت أضعف من رأت بهيجة طيلة حياتها. بدأ مكر الأنثى بين بهيجة وصفية مبكرا جدا، في سنوات الطفولة الأولى. كانت صفية تبالغ في التدلل على أبيها أمام بهيجة، وكأنها تعايرها على قسوة قلب أبيها. كانت تعرف أين الجرح وتعرف كيف تعبث فيه بأصابع

obeikandl.com

خبيثة. لم تنشأ بينهما صداقة كتلك التي بين والدتيهما. كانتا تتعاركان دوما وتتشابكان لفظيا، تدعوها صفية ببنت الخادمة فتدعوها بهيجة بابنة العربجي فترد صفية بأن العربجي أفضل من العاطل السكير وتنتهي المسألة دائما ببكاء بهيجة.

تم منعها من اللعب في الحارة بفرمان صدر من أبيها يهدد أمها بالعقاب الجماعي إذا تمت مخالفة الأوامر. كانت تكتفي بالجلوس على عتبة الباب تشاهد أقرانها يلعبون وينطلقون بكل حرية. كانت تنظر لصفية نظرات دهشة وإعجاب وهي تلعب مع الذكور كل الألعاب المتاحة، حتى الألعاب التي تتطلب قوة وتلاحم. شاهدتها وهي تمتنع عن لعب (الأولى) و(الكبة) و(نط الحبل) وباقي ألعاب البنات وتقبل على (السبعاوية) و(صيادين السمك) و(الاستغماية) وباقي الألعاب الخاصة بالذكور. شاهدتها تتعارك دون أن تهاب أحدا أو تضعف أمام أحد. خليط من المشاعر سكنها في هذه الفترة، إعجاب وحقد ودهشة. نفس المشاعر تكررت حين ماتت زبيدة، ظنت أن موت زبيدة كفيل أن يكسر عزيمة صفية ويحيلها إلى فتاة ضعيفة مستكينة، لكنها فوجئت بما كان من الفتاة اليتيمة تجاه أبيها، سواء في البيت أو في الخروج للعمل. لا تنسى أبدا شعورها عندما رأت صفية لأول مرة بشعرها المقصوص وملابسها الذكورية. تابعت عن كثب غمز ولمز الناس وسخريتهم من صفية وأبيها وظنت أن ذلك سيكون عقبة صعبة في طريقها لكنها فوجئت بها قوية غير عابئة بما يجري حولها ومع الوقت أجبرت الناس على السكوت والكف عن التدخل في شؤونها الخاصة، بل

وأجبرتهم على احترامها واحترام شجاعتها وقوة شخصيتها. كل هذا وبهيجة واقعة بين تسلط أب عربيد وضعف أم لا حول لها ولا قوة. حتى عندما كانت تمني نفسها بزواج عكاشة من امرأة أخرى بعد وفاة زبيدة، وتتمنى زوجة أب قاسية القلب تسيء معاملة صفية وتستحوذ على جزء من اهتمام أبيها، صُدِمَت من موقف عكاشة الرافض للزواج احتراما لذكرى زوجته. مرة أخرى هزمتها صفية دون علم أو قصد. مرة أخرى وليست أخيرة رأت بهيجة أن صفية أفضل حالا منها، يكفي أن أباها كان وفيا لزوجته المتوفاة في الوقت الذي لا تنقطع فيه خيانات أبيها هي لزوجته التي ما تزال حية ترزق.

تثير تلك الذكريات في نفسها شجونا وتنكأ جروحا لم تكن لتندمل، وتؤجج نيرانا لا تهدأ إلا قليلا ثم ما تلبث أن تشتعل. هواء الغرفة صار رطبا خانقا، تركت كرسيها واتجهت صوب النافذة التي تطل على الحديقة الداخلية للبيت. نسمة هواء تسربت إلى داخل الغرفة بمجرد فتح النافذة، ما لبثت تلك النسمة أن صارت تيارا من الهواء المنعش الذي داعب خصلات شعرها المسدل بحرية تامة على كتفيها وظهرها، تعشق مداعبة الهواء لشعرها. أطلقت بصرها على ذلك الغطاء الأسود الذي دثر البيوت فسترها وساوى بين حقيرها وعظيمها. تداعبها إضاءات القلعة من بعيد، كم تمنت لو أنها تملك تلك القلعة بما تعنيه من سلطة وقوة وتحكم ورفعة، تقول دائما بينها وبين نفسها لو أن مصر ما زالت تحكم من القلعة لصارت هي الملكة أو السلطانة، فهي ترى أنها لا تقل أبدا عن شجرة الدر، كما أنها

ليست بحاجة إلى أي أيبك ليعينها على الحكم. عادت ببصرها من هناك إلى الحديقة الهادئة الساكنة. تذكر المرة الأولى التي دخلت فيها إلى هذه الغرفة، غرفة الهانم الكبيرة، كما كانوا يطلقون عليها. يومها تمنت أن يكون لها غرفة مثلها، ولم تكن تدري أن الغرفة نفسها بل والبيت بأكمله سيصير ملكا خالصا لها من دون الناس. ذلك البيت الذي دخلته للمرة الأولى وهي طفلة ذات عامين على ذراع أمها التي جاءت لتعمل خادمة بناء على توصية من عكاشة، الذي أقنع أباها أن يوافق على أن تعمل زوجته خادمة في بيت العثمانلي لاحتياجهم للمال اللازم للمعيشة. ما أن تذكرت عكاشة حتى عادت مرة أخرى إلى صفية وجولاتها التي لا تنتهي معها. من هنا، من نفس الشرفة، رأت بهيجة شيئا استقر في ذاكرتها كأنه الوشم. كانت تتولى نظافة غرفة الهانم الكبيرة، وكان الوقت صباحا، شمس شتوية تبعث الدفء في الأبدان والنشوة في الأرواح. كان جودت يجلس جلسته المعتادة في الحديقة عندما توقفت العربة الكارو وعليها بعض الأشياء التي طلبها يلمظ باشا، أبو جودت. نزلت صفية من العربة وبدأت في حمل الأكياس والأقفاص إلى داخل البيت. فتاة صغيرة ذات شعر قصير وجسد نحيل، أدخلت الأكياس والأقفاص على أربع مرات، في كل مرة تتبعها نظرات ذلك المراهق التركي ذهابا وإيابا. قام من مجلسه واقترب منها لما انتهت من تخزين البضائع داخل البيت ودار بينهما حوار غير مسموع تتابعه بهيجة بشغف. حاول جودت أن يلمسها فما كان منها إلا أن صفعته صفعة شديدة على وجهه وذهبت إلى عربتها بخطوات واثقة دون أن تلتفت، تاركة ذلك البغل التركي يلعق خزيه.

obeikandi.com

شعرت بهيجة وقتها أنها هي التي تلقت الصفعة بدلا من جودت، فصفية فعلت ما لم تجرؤ عليه هي في محاولاته المتعددة للتحرش بها. نعم لم تمكنه من لمس جسدها، لكنها لم تكن حازمة معه كصفية لأنها خافت على أمها من ردة فعل يلمظ باشا إن هي أساءت لولده. مرة أخرى من مرات عديدة تثبت فيها صفية أنها أشجع وأقوى من بهيجة. مرة أخرى تهزمها هزيمة غير مباشرة.

بهيجة ليست بالمرأة الغبية، بل على العكس هي حادة الذكاء، لذلك فهي تعلم جيدا أن المواجهة المباشرة مع صفية لن تكون محمودة العواقب، لذلك فكرت وأعدت خطتها جيدا. تعتمد الخطة على الحصار وتقليم الأظافر، تقوم بهيجة بزعزعة الجبهة الداخلية وإحداث قلاقل وانشقاقات داخل المعسكر المقابل. بدأت خطتها بعزوز، ألقت حبائلها حوله وأغرته بالمال مستغلة جشعه واحتياجه الدائم لتوفير تكاليف المزاج. وعدته بالعناية بالطفل وتربيته في بيئة أفضل وأنظف، تعهدت بإرساله إلى الكتاب ثم إلى المدرسة ليكون متعلما قادرا على إدارة أعمالها الكثيرة والمتشعبة. قالت أنها ستقوم بتزويجه من آمال ابنة أخيها المتوفي ليصير كل شيء ملكا لهما بعد موتها. لم يكن عزوز ليرفض كل تلك الإغراءات، لذلك وافق دون تردد وبدا سعيدا سعادة لا توصف وتعهد بإقناع صفية بكل الطرق الممكنة أن توافق على هذا الاتفاق. خطوتها القادمة ستكون الأولاد. ستعمل على استقطابهم واستمالتهم حتى يحاربوا بالنيابة عنها، فالأولاد هم أظافر صفية التي يجب تقليمها حتى تتم المهمة بالنجاح المطلوب. بهذه الطريقة سيتم

obeikandi.com

حصار صفية وعزلها في معسكر منفرد لتواجه الجميع فلا تجد بدا من التسليم بالأمر الواقع. درست بهيجة كل شخص على حدة وعرفت نقاط ضعفه التي ستمكنها من تجنيده ضد أمه دون أن يشعر. حنجل واعتماد والتوأم، هم الهدف الأساسي في المرحلة القادمة، مع استبعاد الثلاثة الصغار. يوم سبوع بهيج سيكون بداية مرحلة الحصار وتقليم الأظافر.

* * *

تزين بيت العربجي واستعد لحفل سبوع المولود الجديد. أرسلت بهيجة الخروف كما وعدت، ومعه أرسلت من يذبحه ويقوم بتجهيزه للطهي. ازدحم البيت بالنساء اللواتي جئن لمساعدة صفية في تجهيز الطعام، كما تحلقت بعض البنات في حلقة كبيرة لتعبئة أكياس السبوع التي سيتم توزيعها. أمام البيت، يجلس عزوز محاطا ببعض جيرانه يدخنون الجوزة ويشربون الشاي، وفي الحارة اجتمع الأطفال يلعبون منتظرين أكياس السبوع والشمع. ذهب حنجل بالحنطور، بناء على تعليمات أبيه، إلى بيت العثمانلي ليحضر بهيجة لحضور الاحتفال. أمام بيت العثمانلي، انتظر حنجل خروج بهيجة. يعاين البيت بعين الانبهار متخيلا بهيج وهو يجري ويلهو ويكبر وهو من أهل هذا البيت العريق الذي كان وما زال أسطورة من أساطير الجمالية، وكان وما زال محورا للأحاجي والألغاز التي لم تجد حلا إلى الآن. خرجت له أم نجاتي، وصيفة بهيجة وساعدها الأيمن في الحمام والبيت عموما. بيدها طبق مهلبية أعطته لحنجل، هو يعشق المهلبية وتلك المعلومة تعرفها بهيجة كما تعرف الكثير والكثير من المعلومات عن كل قاطني بيت العربجي. أم نجاتي امرأة سمينة بيضاء غليظة

obeikandl.com

الملامح، قصيرة تميل يمينا ويسارا مع كل خطوة تخطوها. تعمل أم نجاتي في بيت العثمانلي منذ وفاة أم بهيجة، وعندما اشترت بهيجة البيت أبقت عليها لما تعلمه عنها من الأمانة والطيبة وحب العمل، كما أنها كاتمة أسرار من الدرجة الأولى، تخلص جدا لمن تعمل لديه بالإضافة إلى أنها مطيعة جدا لا تخالف أمرا ولا تبطئ فعلا. سلمت على حنجل وباركت له على المولود، وسألته عن صحة أمه ووليدها. مدحت كثيرا في صفية وطيبتها وأصلها. انهمك حنجل في طبق المهلبية بينما كانت أم نجاتي منهمكة في أداء مهمتها التي كلفتها بها سيدتها، كانت تتحدث إلى حنجل عن بيت العثمانلي وخيرات بيت العثمانلي، بهيجة وكرمها ويدها السخية وتربيتها لآمال ابنة أخيها، عدم وجود ورثة لبهيجة غير آمال ومن سيتزوج آمال فيما بعد. نصحته أن يبقى قريبا من بهيجة فالقرب منها يعني الخير الكثير. لم يهتم حنجل كثيرا بتلك الثرثرة قدر اهتمامه بالاستمتاع بالمهلبية! شعرت أم نجاتي أن كلامها لم يحدث أي صدى أو تأثير على حنجل فنقلت ذلك الشعور إلى بهيجة التي قررت بدورها تغيير استراتيجية التعامل مع حنجل. خرجت من البيت وركبت الحنطور بعد أن سلمت على حنجل الذي رد السلام بكلمات غير مفهومة.

.. عدي على بيت المعلم مرعي الفسخاني عشان ناخد أم مرزوقة في طريقنا..

ما أن سمع حنجل تلك الجملة حتى تهلل وجهه الكئيب وظهرت بوادر فرحة حاول كتمانها لكنه فشل. تابعته بهيجة وهي تدري تماما سر تلك الفرحة فقالت بمكر أنثوي معتق بالخبرة وهي تكتم ضحكتها

obeikandi.com

... طبعا الحصان زمانه بيتنطط من الفرحة

باغتته الجملة الخبيثة فأزالت كل علامات الفرحة الوليدة من وجهه وعاد عابسا كما كان. شعر أن بهيجة تسخر منه وتلمح تلميحا سخيفا لفرحته بزيارة بيت مرعي الفسخاني لرؤية مرزوقة، لكنه تظاهر أنه لم يفهم قصدها وقال بقرف واضح

... إشمعنى يعني؟!

قالت وهي تحتفظ بنفس الابتسامة الملأى باللؤم والمكر.

... يعني عشان بيقعد كتير محبوس، وفين وفين لما بتستخدموا الحنطور. عشان كده هيفرح بالمشاوير دي

لم يقتنع بذلك الكلام، لكنه سكت وكأن شيئا لم يكن. عند بيت الفسخاني توقف الحنطور في انتظار خروج أم مرزوقة. تجولت عيون حنجل في كل مكان تبحث عنها، حبيبته التي ملكت شغاف قلبه. خرجت بصحبة أمها باسمة جميلة الوجه دقيقة الملامح. سارت القشعريرة في بدن الولد وتعرق جبينه عرقا غزيرا. سلمت البنت على بهيجة ثم عادت مسرعة إلى داخل البيت آخذة معها قلب وعقل حنجل الذي ضرب الحصان بغلٍ واضح آمرا إياه بالتحرك.

بدأت السيدتان الحديث بصوت عال، قاصدتين إسماع حنجل حوارهما المحبوك. قالت بهيجة وهي تتصنع الغنج

.. مرزوقة بقت عروسة ما شاء الله عليها. كل يوم بتحلو

ردت أم مرزوقة بفخر

obeikandl.com

... وهي شجرة التفاح هتطرح إيه غير تفاح

بعد وصلة من الضحك المتهتك قالت بهيجة بعد أن غمزت بطرف عينها

... ما حدش هيجوزها غيري

ردت أم مرزوقة وهي تضغط بكفها على صدر بهيجة

... وحياتك ما تاخد غير اللي انتي توافقي عليه.. ده انتي الخير والبركة

ختمت بهيجة حديثها قائلة

... إن شاء الله عريسها عندي.

وصلت الرسالة لحنجل تماما كما أرادت بهيجة. حدث نفسه أن بهيجة ستكون بوابته لتحقيق حلمه بالزواج من حبيبته. تذكر نصيحة أم نجاتي له بالتقرب من بهيجة، فالخير كل الخير في القرب منها. لاحت له صورة أخيه بهيج فشعر بالخطر وابتلع ريقه بصعوبة بالغة. بهيج هو حلقة الوصل التي ستقرب المسافات بين أسرته وبهيجة، وبالتالي سيكون سببا في تقربه من بهيجة وكسبها في صفه لتكون هي بوابته للفوز بمرزوقة. أيضا من الممكن أن يكون بهيج سببا في ضياع كل شيء لو عاندت أمه ورفضت رعاية بهيجة للولد.

هب عزوز واقفا حين وصل الحنطور أمام البيت. رحب ببهيجة ترحيبا شديدا، حتى أنه لم ينتبه لوجود أم مرزوقة. لم يكن عزوز هو المرحب الوحيد، بل شاركه الترحيب كل الرجال الموجودين رفقة عزوز. تقدم عزوز إلى داخل البيت وهو يدعو بهيجة للدخول.

* * *

obeikandl.com

دخلت بهيجة إلى بيت العربجي للمرة الأولى منذ وفاة زبيدة. رفعت ثوبها بيديها قليلا عن الأرض كي لا يتسخ. جالت بعينيها في جولة سريعة في كل أرجاء الفناء الخارجي تستعيد ذكريات الطفولة. لم تلحظ أي تغيير في البيت، وكأنها كانت هنا بالأمس، فكل شيء كما هو، إلا بعض الأشياء القليلة. نظرت إلى الفرن نظرة حنين دافئة، فعند الفرن كانت تقعد لتراقب أمها وهي تساعد زبيدة في تقريص العجين ووضعه على الأقراص الطينية، بينما كانت تلعب هي بقطع العجين الصغيرة مع صفية في انتظار الرغيفين الصغيرين. هنا أيضا كانت تلعب مع صفية برماد الفرن، وغالبا ما كان ينتهي اللعب بمشاجرة بين الصغيرتين. هب جميع النساء المتواجدات في الفناء الخارجي للترحيب بها. تحلقن حولها يتزاحمن لينالن شرف مصافحتها، فدائما ما تلقى بهيجة ذلك الترحيب وتلك الحفاوة من الجميع. قبل أن تكون مالكة بيت العثمانلي لم تكن تلقى تلك الحفاوة أو ذلك الترحيب، كانت مجرد حفافة تروح وتجيء دون أن يلاحظها أو يهتم بها أحد، لم تكن تعدو كونها امرأة تحتقرها النساء بسبب مهنتها ويشتهيها الرجال لجمالها وبياضها وملاحة وجهها، أما الآن فهي من أعيان أحياء قاهرة المعز. على الدكة الخشبية التي تم نقلها إلى وسط الفناء بعد تجهيزها وفرشها لتليق بسيدة من الأعيان، جلست بهيجة كملكة متوجة وإلى جوارها أم مرزوقة بينما جلس بقية النسوة على الحصير الذي تم بسطه على جوانب الفناء. تنصت إلى حديث أم مرزوقة بغير اهتمام، فاضطرابها الداخلي المتزايد يجعلها تبذل مجهودا مضنيا لإخفائه حتى لا تلحظه النسوة، مما يفقدها

obeikandi.com

تركيزها. كانت تجول بعينيها باحثة عن صفية، تترقب خروجها في أية لحظة متشوقة إلى تلك المواجهة التي انتظرتها طويلا. بصوت عال يتصنع البهجة قالت أم مرزوقة

... هي فين أم المولود؟ ما حدش عزمها ولا إيه؟!

ضحك الجميع بينما قامت أم شلش لتخبر صفية بقدوم بهيجة. قالت وهي تتجه إلى حجرة صفية

... معلش يا جماعة، هي بترضَّع اسم النبي حارسه بهيج وجاية، البيت بيتكم انتوا مش ضيوف

دخلت أم شلش الحجرة فوجدت صفية جالسة على الأرض وفي حجرها يرقد بهيج وقد التقم حلمتها في فمه بينما هي تهيم في عالم آخر. بدت على ملامح صفية كل أمارات التوتر والقلق. رقت المرأة لحال رفيقتها وابنة رفيقتها، فقد وُلِدَت صفية على يد أم شلش، وكانت أم شلش من الصديقات المقربات لزبيدة. دنت منها وجلست بجوارها على الأرض. ربتت على كتفها بحنو بالغ وقالت

... فيه إيه يا بنتي؟ ما لك؟

ردت صفية بعد أن شهقت وزفرت بعنف

... ما فيش يا ام شلش، ما فيش

قالت أم شلش وكأنها تكلم نفسها

... ما فيش يا ام شلش ما فيش، ده على أساس ان ام شلش عبيطة ومش فاهماكي. يا بت ده أنا اللي ساحبة رجليكي ومربياكي وعارفاكي أكتر من نفسك

obeikandl.com

سحبت صفية حلمتها من فم الرضيع وقالت وهي تعيد ثديها إلى داخل جلبابها

... أقول لك إيه بس؟ يا ريت القوالة تفيد

بحكمة عجوز في عقدها السابع قالت وهي تضغط بيدها على فخذ صفية

... معلوم القوالة بتفيد، يا بنتي دي البالونة المخرومة صعب تفرقع

صمتت قليلا وهي تفكر في الجملة التي نطقت بها أم شلش، فهي بالفعل لا تحب الشكوى ولا تجيد الفضفضة وهو ما يحملها فوق طاقتها أضعافا مضاعفة، كما أنها تكره أن تكشف ضعفها أمام أي أحد مهما يكن، لكنها الآن بحاجة إلى الفضفضة، بل إن شئنا الدقة فهي بحاجة إلى البكاء وربما إلى الصراخ أيضا، فما يعتمل الآن في صدرها يفوق قدرتها على المقاومة. قالت وهي تقاوم البكاء

... صعبان عليا دَخْلِة بهيجة بيتي بالشكل ده، عزوز بيتعامل معاها ولا كأنها الملكة ناريمان، شوفي قعدتها على الدكة بره وانتي تحسي انها صاحبة البيت واحنا اللي ضيوف عندها.

قامت أم شلش ببطء شديد وهي تقول بصوت متهدج.

... طول ما انتي قاعدة حاطة إيدك على خدك كده زي الولا يا هتبقى هي صاحبة البيت والكل في الكل

أمسكت صفية بذيل جلباب أم شلش لتمنعها من مغادرة الحجرة قائلة بصوت مستجير يلتمس النصح والإرشاد.

... يعني إيه يا غالية؟ فَهِّميني

obeikandl.com

قالت أم شلش وهي تنهرها كأم تنصح ابنتها

... يعني سيبك من المُحْن ده لإنه مش لايق عليكي، واطلعي للنسوان اللي بره رافعة راسك وعلى إيدك الواد يا ام الواد، اثبتي لبهيجة وللكل إنك صفية بنت زبيدة وعكاشة، وانك ست البيت والكل في الكل

أخذت أم شلش الرضيع من صفية وطالبتها بالخروج إلى الضيوف ريثما تنتهي هي من حمَّام السبوع، أو ما يسمى ب(مايّة الملايكة)[1]، وكذلك وضع الكحل للمولود.

تسكن أم شلش بمفردها في بيتها في حي الموسكي، فقد مات زوجها قبل عشرة أعوام. شلش هو اسم أخيها الأكبر، ولأنها عاقر فقد أطلقوا عليها اسم أم شلش، كما جرت العادة بتسمية العاقر باسم الأخ الأكبر. امتهنت مهنة الداية بعد يأسها من الحمل، وكأنها أرادت المشاركة في حالات الولادة والمرور بتلك التجربة التي حُرِمَت منها كوالدة. تحتفظ بعلاقات جيدة مع الجميع، فالكل يحب هذه المرأة الطيبة الحنون. تقصدها النساء في الاستشارات النسائية، وكل ما يتعلق بالبيت والأسرة. تجيد تفسير الأحلام، وقراءة الكف والفنجان والكوتشينة، وضرب الودع والرمل. يراها سكان الحي مصرفا مضمونا وموثوقا به للإيداع والاقتراض، فلا تجد أحدا من أهل الحي إلا وقد أودع عندها أو اقترض منها. اعتاد الناس على حدة لسانها وألفاظها المكشوفة، بل أحبوها على الرغم من ذلك، وذلك لخدماتها

(١) هي المياه التي يُغْسَل فيها الرضيع قبل السبوع ويتم الاحتفاظ بها ليتم رشها على عتبة باب البيت

obeikandl.com

التي تقدمها دائما ومن دون مقابل للجميع. كل البيوت مفتوحة أمامها ولا يغلق دونها باب قط، فهي تدخل البيت كفرد من أهله، فتتحرك وتتصرف كصاحبة بيت. في الفرح هي أول المهنئين وفي الحزن هي أول المواسين. وحدتها جعلتها تلقي بنفسها في حياة الآخرين، تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم، تحمل أمالهم وتطلعاتهم وتغرق في مشاكلهم وحكاياتهم حتى أذنيها. عجوز تخطت الستين، لكنها تتحرك وتتصرف كفتاة في العشرين من عمرها. قصيرة نحيفة بيضاء البشرة صحيحة البدن، جميلة العينين ذات أنف مدبب وشفاه دقيقة. اليوم هي التي ستقوم بكل طقوس السبوع، ليس بصفتها الداية، لكن لأنها اعتادت واعتاد الناس أن تكون المسؤولة الأولى عن كل طقوس الفرح والحزن في بيوت حي الجمالية وما حولها. جردت بهيج من ملابسه ووضعته في طست نحاسي صغير مملوء بالماء الفاتر المخلوط بماء الزهر. غسلت جسده كله بالماء بينما كان يبكي بكاءً متقطعا. بعد أن جففت جسده بعناية لفته بقطعة قماش بيضاء ثم ألبسته فستانا سماوي اللون. نام الرضيع قبل أن تكسيه أم شلش بالكسوة الجديدة. وضعته في حجرها وهي تبسمل وتحوقل قبل أن تمسك بالمكحل. غرست المرود الخشبي في بصلة صغيرة قبل أن تنزعه لتغمسه في الملح ثم تغرسه مرة أخرى في البصلة لتدخله في زجاجة الكحل ثم تخرجه مرة أخري وتمرره بين جفني عينه اليمنى. أجهش في البكاء فضمته إلى صدرها بحنو وهي تطيب خاطره بكلمات وكأنه يدرك ما تقول. كررت العملية مع عينه اليسرى وتكرر رد فعله فضمته مرة أخرى وهي تطيب خاطره.

obeikandi.com

أحضرت غربالا متوسط الحجم، لفت الغربال بقماشة زاهية اللون ونثرت فيه حبوب النقل والحمص والفول السوداني. وضعت بهيج في الغربال ملفوفا بدثار أبيض واستعدت للخروج على النساء لتبدأ طقوس السبوع.

* * *

حين خرجت عليهن صفية انطلقت الزغاريد وبدأت التهاني. التقت الغريمتان وجها لوجه لأول مرة من خمس سنوات. كان آخر لقاء بينهما حادا عنيفا، فيه الكثير من المكر واللعب بالألفاظ ثم ما لبث أن انتهى دون حسم، لكن بهيجة اعتبرت نفسها منهزمة لأنها لم تنتصر رغم وضعها الجديد، فما زالت صفية صعبة المراس وغير قابلة للكسر. ظهر الفرق واضحا جليا بين المرأتين القريبتين جدا في العمر، واللتين مرتا بنفس الظروف القاسية. ظهرت بهيجة كالطاووس في زينتها وملابسها باهظة الثمن، علي وجهها كل أمارات العز والراحة. على الجانب الآخر، كانت صفية شاحبة الوجه منهكة الجسد، ليس من تأثير الحمل والولادة ولكن دوام الشقاء والفقر ينحت في الوجه كل أمارات الإجهاد والبؤس والتقدم في العمر. بدت صفية أكبر من بهيجة بعشر سنوات على الأقل.

.... ألف حمد لله على السلامة يا ام هنداوي

... تسلمي وتعيشي يا اختي

خرجت كلمة يا أختي مشوهة خالية من أي مشاعر، لم تخرج من القلب ولم تصل إلى القلب. ابتسمت بهيجة ابتسامة صفراء غير مبالية وقالت

obeikandl.com

... مبروك ما جالك وربنا يجعل فيه البركة

.... الله يبارك فيكي، عقبال ما تتطمني على المحروس جوزك ويرجع لك بالسلامة

لم تكن العيون تنظر، بل كانت تلقي سهاما من اللهب. معركة لم يكن فيها جس نبض أو استعراض لقدرات العدو، إنما هجوم متواصل عنيف. شعرت بهيجة بمعايرة صفية لها فازدادت حنقا وغضبا، لكنها احتفظت برباطة جأشها وأظهرت هدوءًا وابتسامة تخفي تلك البراكين المشتعلة. دنت من صفية حتى أصبحتا متلاصقتين تماما. وضعت قبلتين على خديها شعرت بهما وكأنهما لدغتي حية. منعت نفسها بصعوبة من مسح آثار القبلتين بكفها وابتسمت وردت اللدغتين بمثلهما. لم يقطع ذلك الصراع الشرس المختبئ خلف تلك الغلالة من المداهنة والنفاق إلا خروج أم شلش من الحجرة تحمل الغربال الذي يحوي الوليد وهي تبسمل وتحوقل وتصلي على النبي. انطلقت الزغاريد في كل أنحاء البيت وانهال سيل من المباركات والدعوات. دنت بهيجة من الغربال وقبلت جبين الوليد وأخرجت عشرة جنيهات ووضعتها في كفه وسط ذهول النسوة اللواتي فغرن أفواههن مذهولات، فالمبلغ ضخم ولم يسبق أن أعطاه أحد هدية لمولود من قبل. ابتسمت صفية ابتسامة ساخرة، تعرف أن بهيجة تحاول استخدام السلاح الوحيد الذي تجيد استخدامه، المال، وذلك لما شعرت بهزيمتها بمجرد ذكر اسم زوجها. لم تقصد صفية محاربة بهيجة قط، ولم تكرهها، بل على العكس حاولت كثيرا أن تصاحبها أيام الطفولة، لكن بهيجة لم تكن ترى إلا التحدي والمعارك المستمرة، وقد فرضت تلك الحالة

obeikandl.com

على صفية وأجبرتها على خوض المعركة تلو الأخرى. قالت صفية محاولة كسر حالة الصمت والترقب التي اجتاحت الجميع.

... تسلم إيدك، طول عمرك كريمة وصاحبة واجب

قالت بهيجة بفخر وتعال

... إحنا اخوات وما فيش فرق بينا يا ام هنداوي

ردت صفية بنفس الطريقة

... طبعا يا اختي طبعا. عقبال ما نفرح بعوضك

دخل الأطفال مهرولين إلى داخل الفناء وهم يرددون مع النساء

سموا المولود... سعد الله

إن شا الله يعيش... إن شا الله

تلاقت عيون المرأتين عندما بدأت النسوة في تغيير كلمة المولود إلى (سموا بهيج... سعد الله). دار بينهما حوار طويل بلا كلمات. رمقتها بهيجة بنظرة منتصرة وكأنها تقول

... الواد اتسمى على اسمي

فقابلتها صفية بنظرة مستهينة بموضوع الاسم وكأنها تقول

... مهما كان اسمه، هو في الآخر ابن بطني.

تناولت صفية قطعة صغيرة من القماش ووضعت فيها سبع حبات من حبوب البازلاء، وتوسطت الفناء وهي تحيك قطعة القماش على هيئة حجاب وتقول بصوت قوي وكأنها توجه إنذارا.

obeikandl.com

... جعلتك حرز يا ابن بطني

... ولبستك حرز يا ابن بطني

... من شر العين يا ابن بطني

... حرز الحسن والحسين يا ابن بطني

على طاولة تتوسط الفناء، وضعت أم شلش الغربال وبداخله المولود، وبجواره إناء به خليط من الملح الصخري المجروش مع السَبْع حبات[1]، خرجت اعتماد من إحدى الحجرات وهي تحمل (البياتة)[2] وضعت الإناء فوق الطاولة وأخرجت ثلاث شمعات ووضعت في كل موضع شمعة بعد أن أشعلتها، على قمة الإبريق وضعت بيضة مسلوقة. أحضرت أم شلش مصحفا وسكينا ورغيف خبز ووضعتهم داخل الغربال بالقرب من رأس المولود ثم نادت بصوت جهوري على راضية لتحضر المبخرة. خرجت راضية من المطبخ وهي تحمل مبخرة فخارية كبيرة تنبعث منها خيوط الدخان مبعثرة في كل اتجاه. تناولت العجوز المبخرة من الفتاة الصغيرة ووضعتها على أرضية الفناء. حملت الغربال وناولته لصفية وهي تبسمل وتكبِّر. حملت صفية الغربال على طول ذراعها الأيمن، بينما رفعت ذيل جلبابها بيدها اليسرى كي تبدأ عملية التخطي. خطت صفية فوق المبخرة تتبعها أم شلش قائلة (الأولة بسم الله)، ثم خطت مرة أخرى فقالت أم شلش (والثانية بسم الله) وهكذا حتى وصلت للمرة السابعة فقالت أم شلش(والسابعة يا بركة محمد بن عبد الله).

(١) وهي مجموعة حبوب تم نقعها في الماء(فول، عدس، أرز، شعير، قمح، حلبة، ذرة).

(٢) وهي عبارة عن إناء به ماء ويوضع به إبريق فخاري به ثلاثة مواضع للشمع.

obeikandl.com

تتابع بهيجة طقوس السبوع من على الدكة الخشبية. تشعل سيجارة وتدخنها على مهل وهي تتابع تخطي صفية فوق المبخرة. تندهش كثيرا لتلك الحيوية التي تتمتع بها صفية رغم ظروفها الصعبة، وتلك الفرحة الحقيقية التي تسكن عينيها. بدت لها صفية وهي تعبر فوق خيوط الدخان الكثيف المنطلق بعشوائية، بجلبابها الأزرق ووشاحها المزركش وكأنها جنية أو أميرة من أميرات الأساطير. بدا جلبابها، على رخص ثمنه ورداءة قماشه، وكأنه ثياب ملكي يخطف الأبصار ويكتم الأنفاس لروعته وفخامته. تساءلت بينها وبين نفسها عن سر ذلك الألق الدائم الذي تتمتع به صفية، فلا هي امرأة جميلة جمالا لافتا، ولا هي امرأة ثرية تقضي وقتها في الراحة واللهو والمقابلات والثرثرة. تلمح في عيون النساء فرحة حقيقية وحبا مجردا. تَراهُنَّ وهُنَّ يُغَنِّين ويحاوطنها ويَدُرْن حولها بكل محبة وفرحة كما تحيط بالوردة أوراقها. تراها مودة وترحيبا من القلب، على عكس المودة المزيفة المغلفة بالنفاق والتي يقابلها بها الجميع لأنها صاحبة بيت العثمانلي. شعرت ببوادر إعجاب تنبت في نفسها تجاه صفية، لكنها وأدت شعورها الوليد. وجهت بصرها صوب الرضيع القابع برداءه ذي اللون السماوي داخل الغربال المستقر على ذراع صفية وكتفها فهدأت نفسها وسكنت روحها؛ فقد قالت لنفسها أن صفية تحتفل بالمولود وتعده لتقدمه إليها على طبق من فضة.

* * *

بدأت أم شلش في دق (الهون) النحاسي بنغمات السبوع المعروفة وهي تتلو على الرضيع وصاياها

obeikandi.com

.. اسمع كلام أمك وما تسمعش كلام أبوك

هكذا ظلت تكرر وصيتها وسط ضحكات النسوة اللواتي لم يندهشن لتلك الوصية؛ فهن يعرفن جيدا أن أم شلش لا تحب عزوز. خارج البيت يجلس عزوز قلقا متوجسا، يخشى من المواجهة التي يمكن أن تحدث بين صفية وبهيجة في أية لحظة. يشعر وكأنه يجلس على شوك يقض مجلسه؛ فوجود النار بجوار الهشيم ينذر بالحرائق التي لا تبقي ولا تذر.

... يعدي اليوم ده على خير يا عزوز، وبعدها كل حاجة هتبقى آخر تمام.

هكذا قال لنفسه محاولا بث الطمأنينة فيها، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل.

رفعت أم شلش الغربال إلى أعلى قليلا وهزته هزا وئيدا ثم وضعته على الأرض. بدأت صفية في التخطي، لكن هذه المرة فوق الغربال سبع مرات. في كل مرة، تمسك أم شلش بالسكين وتضعها أمام الغربال؛ لتمر صفية من فوقها، بينما تردد أم شلش بصوتها الشجي الذي يعكس خبرة كبيرة في طقوس السبوع بكل ما يحمله من موروثات وعادات انتقلت من جيل إلى جيل.

.. غربلة يا غربلة

غربلتين وغربلة

للقمحاية غربلة

للفولاية غربلة

للشعيرة غربلة

obeikandl.com

للعدساية غربلة

للرزاية غربلة

للحلباية غربلة

للدرة غربلة

عادت دقات الهون بإيقاع أسرع وأعنف، بينما التقطت أم شلش البيضة المسلوقة من قمة الإبريق الفخاري (البياتة) وبدأت في أكلها ببطء شديد بوصفها أكبر الموجودات، اعتقادا بأن ذلك يجعل المولود يتمتع بعمر مديد. مالت أم مرزوقة على بهيجة وهمست في أذنها قائلة بسخرية مكتومة.

.. صاحبتك عاملة فيها بكرية وفرحانة قوي وهي بتخطي وضحكتها من الودن دي للودن دي!

اكتفت بهيجة بابتسامة باهتة دون أن ترد، فعقبت قائلة

.. الولية مش مكسوفة على دمها؟! دي البطن الخمستاشر؟!

لم تزد هذه المرة أيضا عن ابتسامة فهمت منها أم مرزوقة أن الحديث لا يروق لصديقتها فصمتت ولم تزد بحرف واحد. في الحقيقة أن ابتسامة بهيجة لم تكن لأن الحديث لم يرق لها، بل ربما داعبها سرور بسيط من ذلك الغمز واللمز، إلا أنها لم ترد لأن ما يعتلج في نفسها الآن هو أكبر وأخطر وأهم من مجرد نميمة نسائية ساخرة.

أمسكت أم شلش بالإناء الممتلئ بالحبوب والملح وبدأت تغترف غرفة وراء الأخرى بيدها وتقذفها في كل أرجاء البيت وهي تردد

obeikandl.com

... يا ملح يا مليح
يا ملح يا مليح
يا جوهر يا فصيح
يحطوك في النار تطرقع
يحطوك في المايا تسيح
يا ملح دارنا
عمَّر ديارنا
يا ملح دارنا
كبَّر عيالنا
كتَّر عيالنا

وظلت تردد (كبر عيالنا كتر عيالنا) حتى وصلت إلى باب البيت مع آخر قبضة في يدها فنثرتها على الباب وهي تردد الجملة بصوت أعلى وأعنف. أثناء نثر الملح والحبوب، تعمدت أم شلش نثر بعضها في وجه بهيجة متظاهرة بعدم القصد، مما جعل صفية تكتم ضحكتها وهي تعتذر لبهيجة قائلة.

.. معلش يا اختي العتب ع النظر، الولية نظرها بقى شيش بيش

أرادت بهيجة تفويت الفرصة على المرأتين فابتسمت ابتسامة باهتة بينما تمسح الملح من عينيها الدامعتين وهي تقول.

... ولا يهمك يا اختي، معلش، أصل الهم والفقر بيضعفوا البصر والبصيرة

obeikandl.com

أوجعتها بكلامها لكن صفية تجاهلتها وهي تنادي اعتماد لتحضر (ماية الملايكة) لأم شلش حتى تسكبها على عتبة البيت، كما تجري العادة في يوم السبوع.

ما أن انتهت أم شلش من سكب الماء على عتبة باب البيت، حتى دوت الزغاريد في كل أرجاء البيت مع تصاعد إيقاع الهون وبدأ الجميع يغني متمنيا للمولود أن يبدأ المشي في وقت مبكر.

دارج يا بهيج دارج

دارج يا ولد دارج

دارج..... بين البيوت

دارج..... على المصاطب

دارج..... وسط الغيطان

عمت الفوضى والضوضاء كل أرجاء البيت مع أصوات الزغاريد وإيقاع الهون وأغنيات السبوع. تزاحم الأطفال على أكياس السبوع والشموع التي تقوم أم شلش بتوزيعها، ومن يحصل على الكيس والشمعة يسرع تجاه بهيجة التي استوت على مقعدها توزع القروش على الأطفال. توافدت النسوة على إناء البياتة لوضع (النقوط) وهو عبارة عن عملات معدنية تظل ملقاة في الإناء وتختلط بحبوب النقل والفول والحمص.

مر اليوم مليئا بالضوضاء والضحك والزغاريد، ومليئا أيضا بالمعارك الصامتة والنظرات التي تحمل كل معاني المكر والتحدي، وكذلك الكلام

obeikandl.com

الذي يحمل أكثر من معنى، يقال لشخص بينما يكون المقصود شخصا آخر. انتهى اليوم وكل النساء يتحدثن عن كرم بهيجة التي لم تتوقف عن توزيع النقود على الأطفال وكذلك أبناء العربجي. لم تتوقف أيضا الأحاديث الجانبية عن المعركة التي دارت بين بهيجة وصفية.

* * *

مبكرا، وعلى غير العادة، وصل عزوز إلى دكان زغلول الجحش. ألقى السلام بفتور واتخذ مكانا قصيا بعيدا عن الناس، فهو يحتاج إلى أن ينفرد بنفسه قليلا. لم تكن ليلته طيبة على أية حال، فقد جافاه النوم واستبد به القلق والأرق، ولِمَ لا وقد أظهر لقاء صفية وبهيجة أن الأمور لن تكون سهلة على الإطلاق، وأن الكثير من العقبات والمشاكل قادم لا محالة. رفض قرعة البوظة التي قدمها له أحد الزبائن على سبيل الترحيب، حتى سيجارة الحشيش التي يدسها في جيب معطفه لم يخرجها ليدخنها. هو في حاجة لعقل واع غير مغيب، لذا قرر ولأول مرة أن يزن الأمور وهو يقظ. التقم غاب الجوزة بفمه ساحبا نفسا عميقا. فتح فمه عن آخره طاردا الدخان بلطف. تذكر بهيجة وهي تلقي بالنقود يمينا ويسارا بلا حساب، وكذلك محاولاتها لاستمالة أولاده بالمال، فقد أعطت اعتماد خمسة جنيهات كما أعطت التوأم ستة جنيهات ليقتسماها فيما بينهما، وأعطت الصغار جنيها لكل منهم. تحاول المرأة بكل ما أوتيت من قوة أن تستقطب الأولاد لتحارب بهم أمهم، لكن صفية لن ترضى بذلك وستقاوم بكل قوتها ذلك الطوفان القادم من بيت العثمانلي. في كل الأحوال ستكون الأمور بالغة الصعوبة وعليه أن يعد العدة ويشحذ كل أسلحته لفك

obeikandl.com

ذلك الاشتباك قدر الإمكان للوصول للغاية المنشودة. صفية ستفسد كل شيء بعاطفتها الغبية التي لا تقيم وزنا للمصلحة، هكذا فكر بينه وبين نفسه.

... ماهو ابني انا كمان يا صفية مش ابنك لوحدك

خرجت منه الجملة بصوت عال دون أن يدري فتنحنح وسعل سعالا مزعجا حتى لا ينتبه أحد إلى أنه يحدث نفسه. يكره الدخول في مواجهات ومشاحنات مع صفية، لكنه هذه المرة لن يقبل أن تكون سببا في فشل خطته، ولن يسمح لها بذلك. سيفعل أي شيء ليرى بهيج في بيت العثمانلي، فبهيج، بالنسبة له، هو القشة التي ستنقذه وعائلته من الغرق في الفقر والضعف. بهيجة ليست مالا فقط، لكنها قوة وسلطة، ومن يجاورها سينعم بالمال والقوة والسلطة. يؤمن تماما أنه لا يبيع ابنه، ولا يقبل أن يبيعه، لكنه يعمل لمصلحة الولد الذي ستكتب له حياة مختلفة عن حياة عائلته، بالطبع هي حياة أفضل. كما أن وجوده في بيت العثمانلي لن ينفعه هو فقط، ولكن هو في صالح الجميع.

... مش عايزهم يشوفوا اللي أنا شوفته

قالها وهو يخرج سيجارة الحشيش من جيب معطفه.

* * *

دخن سيجارة الحشيش ببطء واستمتاع شديدين. سار الخدر في عقله رويدا رويدا حتى شعر بدوار لذيذ. لم تكن سيجارة الحشيش لتفعل به فعلتها لولا حاجته الشديدة أن يصبح مسطولا هربا من دوامات الحيرة والترقب التي تهاجم عقله بلا هوادة. اتكأ على الدكة الخشبية واضعا كفيه المتشابكين خلف رأسه وراح في سفرة بعيدة بخياله الجامح. سار بخياله

obeikandl.com

بعيدا، هناك في مسقط رأسه بإحدى محافظات الدلتا. تلك القرية الفقيرة المعدمة، التي تقع تحت وطأة ظلم وعدوان وتحكم عمدتها الظالم، ذلك الرجل الذي أطلق يد شيخ البلد على رقاب الناس وأرزاقهم ليفعل فيها ما يشاء. رأى نفسه طفلا في بيت أبيه الخفير النظامي (عبد السلام عزوز). ماتت أمه وهو في الرابعة فتزوج أبوه من امرأة قاسية القلب أذاقته الحرمان والقسوة غير مراعية لحالته كيتيم فقد أمه ولم ينعم بحنانها ورعايتها. زادت قسوة المرأة وظلمها له بعد أن وضعت ابنها الأول. وكلما وضعت طفلا زادت مأساة عزوز. كان أبوه رجلا فقيرا ضعيفا، حتى أمام ظلم وقسوة امرأته على ولده البكري. كان يخشى كل الناس، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، شريفهم ووضيعهم. تذكر عزوز تمرده على ضعف أبيه واستكانته، وكيف نشأ عنيفا لا يخشى أحدا. ما ترك أحدا من أترابه إلا وقد ضربه أكثر من مرة فرضا للسطوة. يضرب الولد، فيذهب الولد باكيا إلى أبيه، فيشكو الأب إلى الخفير عبد السلام الذي يقوم بدوره بضرب ابنه وإهانته أمام المضروب وأبيه، وذلك درءًا للمشاكل وخوفا من العواقب. لم يكن حتى ليبحث في الموضوع ليعرف إن كان ولده ظالما أم مظلوما. إلا أن ذلك لم يثن عزم عزوز عن فرض سطوته بالقوة بين قرنائه، حتى أنه كان يهدد المضروب ويحذره من الشكوى. مع الوقت، صار يتشاجر مع من هم أكبر منه سنا. ضَرَب وضُرِب، جَرَح وجُرِح، حتى نجح في فرض سطوته على الجميع، وأجبر الكل على الخوف من قوته المفرطة. أما عن الفقر، فقد واجهه بطريقته، فكان إذا اشتهى شيئا سرقه. لم يكن يعتبر ذلك سرقة، لكن كان يراه حقا يؤخذ

obeikandi.com

بالقوة. غامر مراتٍ ومرات بالتسلسل إلى الحقول والبساتين، كان يجد لذة كبيرة في سرقة المحاصيل والفاكهة ولذة أكبر في سرقة الطيور. يأتي بها إلى زوجة أبيه التي لا تسأله عن مصدرها، بل تفرح جدا وتشجعه ناعتة إياه بـــ - سيد الرجالة - وجلاب الخير، كانت أشد لحظات سعادته وهو يرى إخوته يأكلون وهم فرحين.

تذكر تحرشه بقريناته من البنات، وكم بنت خلعت ملابسها أمامه، وكم بنت داعبها في الحقول، وفوق أسطح المنازل، وفي زرائب الماشية وحظائر الدجاج. كان يفعل ذلك ليس من باب الغريزة، وإنما من باب إشعار نفسه بقوته وذكائه. كان لا يخطئ بنتا أبدا، وكأن بداخله جهاز استشعار عن بُعد، يميز به البنت التي ستوافق من تلك التي سترفض وتفضحه. وكما تدرج في المشاجرات حتى وصل إلى ضرب من هم أكبر منه سنا، كذلك تدرج في التحرش حتى وصل لمن هن أكبر منه سنا، حتى أنه مارس الجنس وهو في الثانية عشرة من عمره. كان ذلك مع إحدى أرامل القرية. تكرر ذلك كثيرا مع نساء أخريات في ظروف وأماكن مختلفة. ومع كل مغامرة يشعر بانتشاء عجيب، فالنشوة بالنسبة له كانت في فعل السرقة ولم تكن أبدا في قيمة المسروق. كان يفعل أي شيء يثبت به لنفسه أنه قادر على الوصول لأية غاية مهما كانت بعيدة المنال، وأنه غير فقير أو محروم أو ضعيف. لم يكن أبدا في حاجة إلى نظرات المحبة أو العطف في عيون المحيطين به بقدر حاجته إلى نظرات الخوف والرعب التي تحيي فيه أشياء أماتها الفقر وقسوة الظروف، وترمم شروخا في نفسه سببها جبن وضعف أبيه.

obeikandl.com

خفق قلبه حين خطرت بباله، اعتماد، حبه الأول التي سمى ابنته باسمها. كان في الخامسة عشرة من عمره، عندما سمع أن جارهم (الخفير محروس) تزوج. محروس كان أرملا خمسينيا، تزوجت أصغر بناته وتركته وحيدا في داره. أشار عليه الرفقاء أن يتزوج فتزوج. قالوا إنها صغيرة وجميلة. صعد إلى سطح البيت ليشرب سيجارة مع كوب الشاي كما اعتاد يوميا، فرأى فتاة في مثل عمره على سطح محروس، بيضاء، ملفوفة القوام، جميلة الملامح. ارتبكت حين رأته فغادرت السطح مسرعة، وأخذت معها قلبه. صُدِم حين عرف أن البنت التي رآها هي عروس محروس. استغل محروس فقر أهلها وطلبها للزواج، متشفعا بوساطة شيخ البلد. لزم سطح البيت أياما كي يراها مرة أخرى، حتى أنه فكر في أن يعبر السور الواطئ الذي يفصل بين السطحين ليراها، لكنه خاف، شعر بالخوف للمرة الأولى، خاف عليها. رآها مرة أخرى، لكنها لم تهرب كالمرة الأولى، على العكس ابتسمت وغادرت السطح ببطء ودلال. عرف بعد ذلك أنها كانت تراقبه طيلة الفترة السابقة. تكررت اللقاءات وتطورت النظرات والإشارات إلى أحاديث طويلة. اشتعلت نار الحب في القلبين. اتفقا على الموعد المناسب للمقابلة يوميا على السطح، فزوجها يذهب إلى عمله بعد صلاة العشاء ويعود بعد صلاة الفجر. يذكر جيدا لمسة اليد الأولى، والقبلة الأولى. رغم مغامراته السابقة، إلا أنه شعر أنها المرة الأولى، كذلك شعرت هي. تحولت لقاءات السطح إلى مقابلات داخل البيت وعلى فراش الزوجية. عاشا معا حياة كاملة كزوجين. حاول إسعادها قدر الإمكان، فهي فقيرة مثله ومحرومة. كان يسرق الفاكهة

obeikandi.com

ويأتي بها إليها، وكذلك البط والأوز والدجاج. تعد هي الطعام الذي يأتي به ليكون عشاءهما الذي يساعدهما على مطارحة الغرام وممارسة الحب. عامان مرا على تلك الحال، نسيت فيهما اعتماد أنها زوجة تعيسة مع رجل في عمر أبيها واتبعت قلبها الصغير الذي عرف الحب في اللحظة التي رأت فيها عزوز. عامان تغير فيهما عزوز، فلم يكن يتشاجر مع أحد أو يتحرش بفتاة أو امرأة، واقتصرت سرقاته على ما يكفيه هو واعتماد فقط. عامان عرف فيهما نفسه على حقيقتها دون عنف أو كراهية لأحد. بقي الحال على ما هو عليه حتى تغيرت وردية محروس وصارت من بعد صلاة الظهر حتى صلاة العشاء. لزم الرجل بيته فاستحال اللقاء، وانتهى الحلم الذي عاشه عزوز برفقة محبوبته الأولى

كانت أصعب أيام حياته. لم يطق البعد عن اعتماد فازداد عنفا وشبقا. عاد للتحرش بالنساء بعد عامين من انقطاعه عن تلك العادة. لم يكتف بالسرقات العادية وقرر التوسع في النشاط لتزداد حصيلة السرقة. تعرف على بعض لصوص الماشية وانضم إليهم. سرق ونهب كثيرا، وصار من أبناء الليل والخارجين على القانون. في يوم من الأيام، رأى الزوجة الجديدة لشيخ البلد، كانت امرأة جميلة ناعمة جميلة الصوت والمحيا. أثارته بجمالها ودلالها. عرف من النظرة الأولى أنها امرأة لعوب. صمم على الإيقاع بها. كان يرى في ذلك تعويضا له عن خوف أبيه المميت من شيخ البلد، وانتقاما من شيخ البلد الذي لم يسلم فرد من أهل البلد من ظلمه وجبروته. راقبها وتتبع أخبارها، رصد تحركاتها. عرف أنها على علاقة بابن العمدة. انتهز فرصة وجودها في أرض

obeikandl.com

زوجها وقت المغيب لينالها.حاول التحرش بها فتمنعت وكانت على وشك أن تفضحه، لولا أنه هددها بما يعرف فخضعت له ونال منها قبلة في الخفاء. اتفقا على اللقاء يوم الجمعة في بيتها، حيث يكون زوجها عند زوجته الأولى. وعدته بالغرق في بحر العسل وأنه سيصبح رجلها الوحيد. في الموعد المحدد ذهب ممنيا نفسه بسرقة شرف شيخ البلد. تركت له الباب مفتوحا فدخل مسرعا وأغلقه. صرخت بمجرد دخوله طالبة النجدة، وفي لحظة كان ابن العمدة وخفراؤه يلقون القبض عليه بتهمة السرقة. دبرت هي وعشيقها تلك المؤامرة للإيقاع به وفضحه أمام العمدة وشيخ البلد، بل أمام أهل البلد جميعهم، وبذلك ضمنوا ألا يستمع أحد إلى كلامه، لو تكلم بشيء عن علاقة ابن العمدة بزوجة شيخ البلد، فالناس لن تصدق لصا مقبوضا عليه متلبسا بالسرقة.

ظل مربوطا في النخلة المواجهة لبيت شيخ البلد لمدة ثلاثة أيام. ثلاثة أيام كانت كفيلة بتجريسه أمام كل أهل القرية. صار مزارا يقصده الجميع، إما للفرجة أو الشماتة. كل الجبناء الذين كانوا يخشونه تجرأوا عليه ورجموه بنظرات الشماتة التي ألهبت روحه وأوجعته أكثر من لسعات السياط التي لم يسلم منها أي جزء من ظهره. كل النساء اللواتي نمن تحته نظرن إليه بكبرياء وشرف، وكأن ما هو فيه الآن قد غسل عارهن وطهر أبدانهن النجسة وفروجهن المذنبة. ضربوه وأهانوه، عذبوه حتى أنهكوا بدنه إنهاكا شديدا. تحمل كل التعذيب وكان على استعداد أن يتحمل أي شيء، إلا تلك النظرة التي حدجته بها حبيبته عندما وقفت أمامه تخنق الدمع في مقلتيها. في تلك اللحظة فقط بكى وتأوه، لا من وجع جسدي، لكن من جرح

عميق في روحه.سلموه لأبيه بعد أن هددوه بالقتل إن بقي في البلدة بعد الفجر. صدر الحكم بالنفي دون محاكمة أو شهود، وطبعا بمباركة الجميع، وكأن الكل قرروا الخلاص منه. بكى أبوه بكاءً شديدا وهو يقنعه بالرحيل خوفا على حياته، وحتى يسلموا من أذى شيخ البلد. كان يستطيع أن يرفض ويتحدى الجميع، لكنه استسلم للأمر الواقع، فقد وجد في نفسه عدم القدرة على مواجهة اعتماد مرة أخرى بعد تلك الفضيحة، كما أنه خاف على أبيه وإخوته من أن ينالهم أي أذى أو يصابوا بأي سوء إن بقي في البلدة بعد المهلة التي أمهلوها له. بالفعل غادر بلدته في جنح الظلام وهو يلعن كل شيء.

مرت عليه تلك الذكريات وكأنها حدثت بالأمس، فهي محفورة بذاكرته وغير قابلة للمحو أو النسيان. لم يكن يتمنى لأبنائه أن يروا ما رآه في مقتبل عمره، لكن الحادثة اللعينة التي أفقدته ساقه وجعلته كَلًّا على زوجته وولده الأكبر، جعلته تلك الحادثة يرى مصير أولاده سيكون مثل مصيره، إن لم يكن أسوأ. جاء بهيج فتغيرت نظرة عزوز للمستقبل مرة أخرى ورأى الأمل يُبعَث من جديد.

* * *

وصل دكروري الحداد إلى دكان البوظة تسبقه جملته الشهيرة

... يا واد يا حمامة، فين القرعة يا ابن القرعة

تلك الجملة التي تعلن عن وصول أضخم زبائن الدكان وأجشهم صوتا. يجمع دكروري ما بين الطول والضخامة والعضلات المفتولة. ورث مهنة الحدادة كابرا عن كابر. رغم قوته المفرطة، إلا أنه طيب القلب دائم الضحك

obeikandl.com

وكأنه خال من الهموم والمشاكل والأوجاع. سريع الزعل سريع الرضا. يبيت حانقا على من ضايقه حالفا أغلظ الأيمان على مقاطعته للأبد، ويصبح ناسيًا ما حدث مبتسما في وجهه إذا قابله. له مع بهيجة حكاية طويلة يعرفها الجميع، فهو أخو زوجة أخيها وخال آمال التي ضمتها بهيجة إلى حضانتها وتتولى رعايتها. حاول كثيرا أن يضم البنت إلى حضانته بعد وفاة أمها لكن بهيجة وقفت له بالمرصاد وآذته كثيرا في شغله واستغلت علاقاتها بالكبار في الضغط عليه، حتى أن الموضوع وصل إلى التهديد بالقتل. رغم أن وجود آمال في بيت العثمانلي أصبح أمرا واقعا، إلا أن دكروري لم يفقد الأمل في استعادتها مرة أخرى. يدرك تماما أن له حقا فيها، وأن هذا الحق مسلوب ولا بد أن يُسْتَرَد في يوم من الأيام.

لاحظ دكروري شرود عزوز وانزواءه بعيدا عن الناس فذهب إليه محاولا إخراجه من تلك الحالة. قال له مداعبا.

... ما لك يا صاحبي؟ زرعتها بطيخ طرحت بصل؟!

نظر إليه عزوز نظرة خاطفة وولَّى وجهه عنه مشيرا له بالجلوس. جلس دكروري على نفس الدكة بجوار عزوز قائلا بحنو بالغ.

.... طمنِّي عليك يا صاحبي، ما لك؟

قال وهو يستند بساعديه على عكازه

..... في دوامة والله يا دكروري

..... دوامة إيه كفى الله الشر؟!

obeikandl.com

.... المعايش بقت صعبة يا صاحبي والعيال احتياجاتها بتزيد

.... طول عمر المعايش صعبة يا عزوز، وطول عمرنا بنعافر وبنقدر عليها

.... خلاص مش قادر على المعافرة يا صاحبي

أخرج دكروري سيجارتي حشيش من جيبه، أشعل واحدة وناولها لعزوز الذي تناولها دون أن ينطق بكلمة، بينما أشعل الأخرى وسحب منها نفسا عميقا وأخرج دخانها بانتشاء واضح. بعد أن دخن عزوز نصف السيجارة تقريبا نظر إلى صديقه بتمعن ثم قال

... هو انت زعلت لما بهيجة أخدت أمال؟

اختفت كل معالم الانتشاء من وجه دكروري وحل محلها حزن وعبوس واضح. سحب نفسا قصيرا وقال

... تصدقني يا صاحبي لو قلت لك إني كنت زي الوَلايا، بكيت والله يا صاحبي، بكيت بحرقة

تعاطف عزوز مع صديقه الذي اغرورقت عيناه بالدموع فقال يُهَوِّن عليه

... لكن البنت هتتربى أحسن في بيت العثمانلي يا صاحبي

.... لكن هتتربى بعيد عن أهلها يا صاحبي

صدمته الجملة فانقبض قلبه انقباضا شديدا، فهو لا يريد كلاما يوقظ ضميره أو يضعه أمام سوء تدبيره. قال وهو يسحب نفسا أخيرا من السيجارة

.... بهيجة من أهلها يا صاحبي ولَّا نسيت

بابتسامة مرة قال معاتبا

oberkanal.com

... إنت اللي نسيت يا صاحبي قساوة قلب بهيجة، نسيت هي كانت بتعامل أختي ازاي، ونسيت كانت بتقسى على أخوها ازاي، نسيت إن بهيجة ما عندهاش قلب أصلا.

ثقيلة هي تلك الكلمات التي قالها دكروري. كان لها وقع شديد على عزوز. وخزت قلبه وخزا شديدا. ظن أن كلامه مع صديقه سيخفف عنه ما يكابد، لكن على العكس زاد وجعه.

* * *

هدوء حذر يسود بيت العربجي منذ يوم السبوع، فقد كانت زيارة بهيجة بمثابة الإعصار الذي لم يبق على شيء مطرحه، وقلب البيت رأسا على عقب. الكل يدور في فلكه الخاص ويعيش عالما مستقلا عن الآخرين. لكل شخص حساباته الخاصة ونظرته الشخصية لما يحدث منذ ولادة بهيج، وما يمكن أن يحدث فيما بعد. صفية لا تترك بهيج لحظة واحدة، تتشبث به وكأن هناك من يريد أن يخطفه من حضنها، تتصرف وكأنه مولودها البكري وأنها لم تلد غيره. لا تستخدم اسم بهيج أبدا، وإنما تسميه - أخوكم - وكأنها تشعر من داخلها أنهم بحاجة دائمة لتذكيرهم أنه أخوهم. حالة من الجفاء تتزايد يوما بعد يوم بين صفية وعزوز، نظرات تتهم ونظرات تدافع وصار التخوف وعدم الثقة هو سيد الموقف بينهما. حنجل استسلم تماما لبهيجة التي تستخدمه يوميا تقريبا في مهمات ملفقة تغدق فيها عليه من كرمها المصطنع حتى يصبح خاتما في إصبعها، وقد كان. اعتماد تتأرجح بين موقفين متضادين، فهي ترفض تماما التفريط في أخيها مهما كانت

المكاسب، وفي نفس الوقت ترى أن بهيجة هي مبعوث العناية الإلهية الذي جاء ليخرجهم من بئر الفقر والعوز، وترى أيضا أنها امرأة طيبة تمد يد المساعدة دون انتظار للمقابل. التوأم الذي يتشابه دوما في وجهات النظر، دب بينهما الخلاف لأول مرة بسبب بهيجة، فقد تغير موقف راضي تغيرا كاملا منذ يوم السبوع وصار معارضا لفكرة التفريط في بهيج. شعر الولد بعدم الارتياح لطريقة بهيجة في توزيع الأموال بغير حساب، وكذلك للحوار بين أمه وبهيجة، فقد شعر أن الأمر أكبر من كونه مجرد محاولة امرأة لاستعارة طفل لتربيته، فالأمر كما تبين له هو محاولة امرأة لتحطيم امرأة أخرى، والمرأة الأخرى لم تكن سوى أمه. شاهد بيت العربجي راضي وراضية متباعدين على غير العادة وأصبح خلافهما وتشاجرهما شيئا عاديا ومألوفا بعد أن كانا متلازمين دائما. إلا أن هذا الهدوء الحذر تلاشى تماما، وبدا البيت وكأنه على شفا حفرة أخرى من الشقاق والخلافات، وذلك عندما طلب عزوز من صفية أن تقوم بتجهيز الطفل لأن حنجل سيأتي ليأخذه بصحبة اعتماد إلى بيت العثمانلي لأن بهيجة تريد أن تراه.

كانت صفية جالسة وبين ساقيها ماجور العجين، وبينما هي منهمكة في رب العجين، صحى عزوز من نومه واستوى جالسا على الدكة، وبعد أن تثاءب كثيرا وفرك عينيه قال بصوت مكتوم.

... بهيجة عايزة تشوف الواد

خبطت بساعديها العجين مرتين وهي تقلب كفيها ثم قالت وهي تكتم غضبها ودون أن تلتفت إليه

obeikandi.com

.... أهلا وسهلا، تشرف

أشعل سيجارة في توتر واضح وقال بصوت مضطرب

... لا ما هي مش هتيجي هنا

بدأت في إزالة العجين من ساعديها وقالت وهى تمسح ذراعيها بطرف جلبابها

... يعني إيه؟

... يعني بهيج هو اللي هايروح لها بيتها

قامت من جلستها وراحت تتهادى في اتجاه عزوز وفي يدها سيخ الفرن. اقتربت منه حتى تلامست ركبتاهما. انحنت لتواجه عينيه بعينها قائلة بصوت خفيض وتحد واضح

... اسمع يا تربية العوالم آخر ما عندي، واللي ما فيش بعده كلام تاني. المومس بتاعتك لو عايزة تشوف ابني، تيجي لحد هنا تشوفه، مش عاجبها تخبط راسها النجسة في أتخن حيط. لكن ابني مش هيفارق حضني ومش هيخرج من بيته.

بحركة خاطفة وضع كفه على قفاها وجذب رأسها ناحية كتفه. قرب فمه من أذنها وقال بصوت خفيض لكنه حاد وقاطع.

... تربية العوالم ده هو اللي خلَّصِك من إيد عساكر الإنجليز قبل ما ينهشوا لحمك ويضيعوا شرفك. تربية العوالم ده خسر رجله بسببك وعاش عاجز بعد ما كان فتوة بيرعب شنبات.

ثم جذب رأسها في اتجاه ساقه الخشبية وقال وهو يشير إلى الساق بنفس طبقة الصوت وحدته

obeikandl.com

... اوعي تتخيلي إن رجلي الخشب دي معناها إني اتكسحت وما بقيتش راجل، أنا لو كنت بستحمل لسانك الزفر ده وإيدك اللي أحيانا بتطول، فده عشان انتي غالية أكتر مما تتخيلي، وعشان ببقى عارف إنك خايفة على البيت ده.

شعر بقبضة يده الشديدة على رقبتها فرق لها قلبه. أجلسها بجانبه على الدكة وربت على كتفها قائلا

... أنا وانتي في مركب واحدة، إحنا الاتنين عايزين مصلحة البيت ده، فخلينا نمشي المركب مع بعض بدل ما تغرق بينا كلنا.

.... بس أنا مش هفرط في ابني ولو هموت

.... ما حدش قال انك هتفرطي فيه، لكن زيارات بهيجة لبيتنا وزيارات بهيج لبيت العثمانلي هتجيب الخير للبيت كله. جهزي الواد عشان حنجل زمانه جاي ياخده هو واعتماد.

ما أن سمعت اسم اعتماد حتى نطت واقفة وقالت في هلع واضح وقالت

... بنتي ما تدخلشي بيت زي ده

... يا ولية يا هبلة هما هايكلوها. ده كل اللي هناك نسوان. وبعدين هي ساعة زمن ويرجعوا، يكون العجين خمر.

وافقت صفية على مضض على ذهاب أولادها لبيت العثمانلي بعد أن أقنعت نفسها المضطربة أن زوجها لا ينوي التفريط في بهيج.

* * *

obeikandl.com

دخلت اعتماد بيت العثمانلي للمرة الأولى. استقبلتها أم نجاتي استقبالا طيبا بعد أن حملت بهيج وداعبته وقبلته وهي تحوقل وتبسمل وتتمنى حصوات في عين من رآه ولم يصل على النبي. اصطحبتها في جولة سريعة في الدور الأرضي ثم صعدت بها للدور العلوي بعد أن أكدت لها أن الست بهيجة لا تسمح لأحد مهما كان بالصعود إلى الدور العلوي، إلا أن بهيج له معاملة خاصة. في الدور العلوي، قابلت آمال وسلمت عليها وداعبتها، كما فرحت الطفلة ببهيج ولاعبته كثيرا. قامت أم نجاتي، كالعادة، بتوصيل الرسالة إلى اعتماد، كما فعلت من قبل مع حنجل. استفاضت في مدح الست بهيجة وطيبة قلبها وكرمها وجودها على المحيطين. جلست البنت مبهورة بما رأته في بيت العثمانلي من فخامة وثراء. أكلت على استحياء من الفاكهة والحلوى التي قدمتها لها أم نجاتي وهي تتخيل النعيم الذي سيحيى فيه أخوها لو قدر له أن يعيش هنا. لم تكن في حاجة إلى أسباب أخرى لتقتنع أن تربية بهيج في بيت العثمانلي ستكون خيرا له ولهم جميعا. مكثت في بيت العثمانلي ساعتين لم تر بهيجة إلا قبل مغادرتها بصحبة حنجل بعشر دقائق. سلمت عليها بهيجة ورحبت بها ترحيبا معقولا. تغزلت فيها وعبرت عن إعجابها بشطارتها وإتقانها كل الأعمال المنزلية واعدة إياها بأنها ستتولى بنفسها موضوع زواجها. قبيل مغادرتها أعطتها جنيهين، واحدا لبهيج والآخر لها. في طريق العودة أكمل حنجل المهمة بأن ظل يمدح طيبة قلب بهيجة وكرمها معه. اتفقا معا على خشيتهما أن تفسد أمهما كل شيء بمعاداتها لبهيجة، كما اتفقا ضمنيا على أن بهيج هو مصباح علاء الدين الذي سيحقق لهما كل الأمنيات.

obeikandi.com

استقبلت صفية رضيعها بلهفة شديدة وكأنه عائد من سفر بعيد. طلبت من ابنتها أن تحكي لها ما دار في بيت العثمانلي بالتفصيل. كانت تركز مع كل كلمة وتكرر السؤال أكثر من مرة.

كانت اعتماد تحكي لأمها بالتفصيل الممل كل ما حدث في بيت العثمانلي، بينما كانت تقرص العجين فوق أقراص طينية، تضع العجين فوق القرص بعد نثر القليل من النخالة ثم تسويه بكفيها حتى يأخذ شكل الرغيف، ثم ترش على سطحه قليلا من الدقيق. تستمع إليها أمها بينما تقوم بتجهيز الفرن، فتقوم بتقليب الحطب المشتعل وتنظف البلاطة الفخارية التي يوضع عليها قرص العجين لينضج ويصبح رغيفا. لاحظت الأم انبهار ابنتها بما عاينته في بيت العثمانلي فقالت وهي تلقي بالمطرحة الخشبية أول قرص عجين داخل الفرن.

... إنتي عارفة اني دخلت بيت العثمانلي قبل كده؟

ظهر الاهتمام واضحا جليا على وجه اعتماد، فهي معلومة جديدة تماما عليها. أردفت صفية وهي تلقي بقرص العجين لأعلى في حركات متوالية نصف دائرية باستخدام المطرحة.

... دخلت الجنينة بس، كنت بوصل بضاعة بالعربية وأنا أصغر منك شوية. يومها حاول التركي إنه يلمس إيدي، عارفة أمك عملت إيه ساعتها؟

باهتمام شديد وشغف طفولي قالت

... عملتي إيه؟!

obeikandl.com

قالت ضاحكة وهي تخرج أول رغيف ناضج من الفرن

... لسعته كف علم على وشه

بدهشة واضحة جدا قالت

... ضربتيه بالكف يا امَّة؟!

أوقفت صفية حركة المطرحة وألقتها على الطبلية أمامها. اقتربت من ابنتها وفي حركة خاطفة جذبتها من شعرها قائلة بصوت مخيف يناسب ملامحها الغاضبة وعينيها الجاحظتين بفعل الغضب.

... وانتي لو مكاني هتعملي حاجة غير كده يا بنت الكلب؟

أمسكت البنت بيديها الاثنتين كف أمها القابضة على خصلة شعرها وهي تصرخ راجية أمها أن تترك شعرها. صم الغضب أذني الأم التي هزت ابنتها بعنف قائلة

... انطقي يا بنت صفية، لو مكاني هتعملي إيه؟!

قال البنت وهي تبكي بحدة وعصبية شديدة

... اللي يمد إيده عليا أقطعهاله

كانت الإجابة بردا وسلاما على قلب صفية فتنفست الصعداء وحمدت الله ثلاثا وباست كفها باطنا وظاهرا. بدأت في تصفيف شعر ابنتها بأصابعها في حنو شديد وهي تنصحها قائلة

... اسمعي الكلمتين دول من امك اللي الدنيا سوتها على الجنبين. ربنا بيحاسب اللي بيفرط في حقه زي ما بيحاسب اللي بياخد حق غيره. اوعي يا بنتي تفرطي في حق من حقوقك مهما كانت الظروف، فاهمة؟

obeikandl.com

... فاهمة يا امة، فاهمة

... بهيجة فتنة، وعمار بيت العثمانلي متوقف على خراب بيت العربجي

... يعني إيه يا امة مش فاهمة

... بكرة تفهمي يا قلب امك

عادت صفية إلى جلستها أمام الفرن دون أن تنبس بكلمة واحدة، وعادت اعتماد إلى تقريص العجين وهي تتابع أمها باهتمام وكأنها تبحث في ملامحها عن إجابة سؤال ما.

* * *

لم تكن بهيجة في احتياج لما يدره الحمام من أرباح، فهي تملك ما يكفي لتحيى حياة الأثرياء طيلة عمرها دون خشية من فقر، كما أن لديها أعمالها التي تدر عليها أرباحا ضخمة ومبالغ طائلة. لم يكن الهدف من إنشاء الحمام ماديا تجاريا بقدر ما كان نفسيا ومعنويا في المقام الأول واستراتيجيا في المقام الثاني. الجانب النفسي والمعنوي يتمثل في رغبة بهيجة المحمومة في الانتقاص من قيمة بيت العثمانلي، ذلك البيت التي تعرضت فيه أمها للمهانة والاحتقار وعوملت كالعبيد، وعاشت فيه بهيجة فترة طفولتها حياة الانكسار والذل. رأت بهيجة داخل بيت العثمانلي كل صور الكذب والنفاق التي يمكن أن يتصف بها بشر، فأصحاب البيت، في العلن هم مثال للعائلات العريقة من أناقة وثقافة ورقي، أما في السر وفي الغرف المغلقة، فأب سكير متصاب يتحرش بالخادمات، وأم متسلطة بخيلة تعد على العاملين بالبيت لقيماتهم وتتصيد لهم الأخطاء لتخصم من

obeikandl.com

مستحقاتهم، وابنة تطارد شابا بحبها وتعرض عليه نفسها وتحيك المؤامرات وترسم الخطط اللازمة للإيقاع به، وابن كسول لا يحركه إلا شهوته. كانت بهيجة تسخر من انبهار الناس ببيت العثمانلي وإكبارهم لأهله، ونظرتهم المعظمة لتاريخه، فالناس ترى الظاهر فقط. أول ما فكرت فيه بهيجة عند دخولها بيت العثمانلي أن تغير الصورة الذهنية له في خيال الناس، وقد نجحت فعلا في ذلك فالناس، في تلك اللحظة، إذا ذكر أمامهم بيت العثمانلي فأول شيء يتبادر لذهنهم هو حمام النساء وما يحيط به من تصورات وتخيلات يسيل لها لعابهم، ونسوا بالتدريج تاريخ البيت وعظمته. أما من الناحية الاستراتيجية، فبهيجة تدرك تماما قيمة الأسرار وأهميتها في التعامل مع الناس، فمهنة بهيجة القديمة أتاحت لها دخول البيوت ومعرفة الكثير من الأسرار، وقد استغلت ذكاءها في استخدام تلك الأسرار لصالحها. مهنة الحفافة مهنة حساسة جدا، فهي لحظات خاصة جدا تكشف فيها العورة وتكون المرأة في حالة انتشاء جسدية ومعنوية تجعلها تتباسط في الكلام وكشف الأسرار. تأخذ بهيجة سرا من امرأة يخص امرأة أخرى، فتذهب إلى المرأة الأخرى فتلقي عليها بعضا من شذرات ذلك السر بعد أن تعيد صياغته بطريقتها وتضع عليه الإضافات المطلوبة، فتسترسل المرأة في حكي أسرار جديدة تخص المرأة الأولى ونساء أخريات. هكذا كانت تدير بهيجة تجارتها للأسرار فصارت عليمة بكل كبيرة وصغيرة في الحي والأحياء المجاورة، مما ساعدها كثيرا في تلك الفترة على جني أرباح ساعدتها كثيرا على مواجهة أعباء الحياة. لذلك قررت تحويل الدور الأرضي من البيت إلى حمام نسائي

obeikandi.com

فقط، وهو أول حمام في مصر يقدم خدماته للنساء فقط، فكل الحمامات تخصص الفترات الصباحية للنساء والمسائية للرجال. أدخلت بعض الخدمات في الحمام، كالمشروبات والجوزة، وخصصت حجرات للجلسات الخاصة بين الصديقات. مع الوقت صار حمام بيت العثمانلي منتدى هاما جدا للنساء، يذهبن للاسترخاء والتجميل وقضاء أوقات الفراغ ومقابلة الصديقات. أم نجاتي هي عين بهيجة على الحمام وناقلة كل الأخبار إليها ومن خلالها تعرف المزيد والمزيد، وبذلك امتلكت القوة والسلطة والعلاقات التي ساعدتها كثيرا للوصول لما هي عليه الآن.

يكفي أن نعرف أن طريق بهيجة لامتلاك بيت العثمانلي بدأ بسر، ذلك السر الذي أحسنت استثماره واستغلاله جيدا لتنجح في نهاية الأمر أن تصبح مالكة البيت وسيدته الوحيدة. بدأت الحكاية عندما سافرت أسرة جودت جوهار للعيش في تركيا وتركوه وحيدا في مصر. أشاع جودت بين الناس أنه رفض السفر وفضل البقاء لأنه يحب مصر ولا يستطيع الرحيل عنها، ففيها ولد وتربى وعاش، وسيموت ويدفن في ترابها بجوار والديه وأجداده. الجميع يعلم بالوصية التي كتبها جودت موصيا بالدفن في مقابر الأسرة وتسليم بيت العثمانلي لهيئة الأوقاف بعد موته لتديره وتحافظ عليه. علمت بهيجة عن طريق إحدى زبائنها أن السبب الحقيقي لسفر أسرة التركي لم يكن الرغبة في بداية حياة جديدة في بلدهم الأساسي، تركيا، لكن كان هربا من الفضائح التي سببها لهم جودت بسبب مغامراته النسائية وتحرشه الدائم ببنات ونساء العائلات، حتى وصل الأمر به إلى

obeikandl.com

إقامة علاقات مع الخادمات. في البداية، لم يتعد كونه سرا عاديا لا قيمة له ولا فائدة منه سوى الشماتة في ذلك الثور الشهواني الذي أذاقها وأمها الكثير، وعانتا منه الكثير، لكن سرا آخر تذكرته بهيجة جعل لذلك السر قيمة وفائدة عظيمة. كانت أم بهيجة تلازم جلنار هانم، أم جودت، في أيامها الأخيرة. كانت جلنار هانم مريضة مرضا شديدا أدخلها في نوبات غيبوبة متتالية وفترات هذيان متقطعة. في فترات الهذيان كانت تهذي بكلام عن ثروة طائلة في قبو سري في الحجرة المغلقة دائما بالدور الأرضي. ماتت المرأة دون أن تطلع أحدا على ذلك السر وتلك الثروة. عرفت بهيجة بذلك السر من أمها فسال لعابها وفكرت كثيرا في تلك الثروة، إلا أنه كان حلما مستحيلا. بعد سفر أسرة جودت، صارت المهمة أسهل وأصبح الحلم ممكنا. بدأت في جمع المعلومات وتتبع أخبار جودت لوضع الخطة المناسبة للاستيلاء على بيت العثمانلي قبل أن يصير ملكا خالصا لهيئة الأوقاف. كانت خطة بعيدة المدى، تحتاج إلى صبر وحنكة في تقدير الأمور للوصول إلى الرأي السديد الذي يفضي إلى نجاح الخطة دون خطأ واحد. في تلك الفترة تقدم للزواج من بهيجة معلمين وأصحاب وكالات وحرفيون، إلا أنها رفضتهم جميعا. من ناحية، هي تكره الزواج لكرهها للرجال، فما رأته في العلاقة بين والديها كان كفيلا برفض فكرة الزواج مطلقا، فبهيجة شخصية متسلطة ترفض الخضوع لسيطرة أحد، ومن ناحية أخرى، ترى بهيجة أن الارتباط سيكون عائقا أمام تحقيق حلمها بالاستيلاء على بيت العثمانلي. اكتملت الخطة بكل تفاصيلها في رأس بهيجة وصارت جاهزة للتنفيذ، إلا أن هناك

obeikandi.com

مشكلة ظهرت أربكتها وجعلتها في حيرة شديدة من أمرها. كانت بهيجة بحاجة لشخص آخر ليساعدها في تنفيذ الخطة. فكرت في أخيها، لكنها تراجعت سريعا، فالعلاقة بينها وبينه لم تكن على ما يرام. خلافات كبيرة نشبت بينهما بسبب إصراره على الزواج من أخت دكروري الحداد رغم معارضة بهيجة لتلك الزيجة. حاولت كثيرا أن تثنيه عن تلك الزيجة دون جدوى، رغم استخدامها لكل أساليب التهديد والوعيد الممكنة، إلا أن حبه كان أكبر من خوفه منها ومن جبروتها وتسلطها. بعد الزواج حاولت كثيرا زرع بذور الخلاف والشقاق بين الزوجين، كانت تنجح أحيانا وتفشل أحيانا أخرى إلا أنها لم تتوقف عن المحاولة. استغلت تأخر الحمل في الضغط على أخيها لتطليق زوجته لكنها فشلت بسبب تمسكه بها. عندما رزقهما الله بابنتهما الوحيدة - آمال - جددت محاولتها للوقيعة بينهما بمحاولة إغرائه بالزواج ممن تنجب له الولد، لكنها أيضا فشلت. كل تلك المشكلات باعدت بينها وبين أخيها وزوجته من ناحية، وبينها وبين أهل زوجته من ناحية أخرى، كما أن أخاها كان لا يخفي شيئا قط عن زوجته وهو ما لا يتفق وطبيعة الخطة التي لا تحتمل أن يعرفها أحد سواها وشريكها. ظلت تبحث عن الشخص المناسب لتلك المهمة إلى أن وجدت ضالتها المنشودة. أبو رجيلة كان هو الشخص المناسب والذي تتوافر فيه كل المواصفات المطلوبة، فهو رجل فقير طيب القلب لا أهل له. مر أبو رجيلة بتجربة زواج فاشلة لم تستمر أكثر من شهر وانتهت بالطلاق. في تلك الفترة انتشرت شائعة أن العروس ظلت بكرا كما هي لأن زوجها يعاني عجزا جنسيا كاملا. بعد

obeikandi.com

فترة العدة تزوجت طليقته من رجل آخر وهي الآن حامل. عاش أبو رجيلة السنَّان الفقير يواجه سخرية المحيطين وغمزهم ولمزهم. تأكدت بهيجة من تلك المرأة أن عجز أبي رجيلة حقيقة وليس شائعة قيلت بسبب موضوع الطلاق. فكرت بهيجة كثيرا فلم تجد أنسب منه لتلك المهمة، خاصة وأن له نقطة ضعف هامة جدا يمكن استغلالها لضمان ولائه.

* * *

لم تكن مهمة بهيجة صعبة مع أبي رجيلة، فالعرض الذي قدمته له يعود بالنفع الشديد على الطرفين. كان الاتفاق يقضي بأن يتقدم أبو رجيلة للزواج من بهيجة فتوافق بدورها على الزواج وتنتقل للعيش في بيته، ومع الوقت واستمرار الزواج سينسى الناس ذلك الاتهام الذي رماه به أهل طليقته من أنه عاجز عجزا جنسيا كاملا، وهو ما ستدعمه بهيجة بين النساء بأنه رجل كامل الفحولة. في المقابل يطيعها أبو رجيلة طاعة كاملة فيما تطلبه منه، وأن يترك لها مهمة القيادة وتسيير أمور الحياة دون معارضة، وهو ما وافق عليه أبو رجيلة دون تردد، فكل ما كان يهمه هو تجميل صورته أمام الناس لتنتهي سخريتهم وغمزهم ونظراتهم الموجعة له. بعد الزواج، شرحت له تفاصيل الخطة التي أعدتها للاستيلاء على بيت العثمانلي. في البداية خاف خوفا شديدا، ولكن مع الوقت تقبل الأمر ووافق، خاصة بعد ما لمسه من ذكائها وحسن تقديرها للأمور، وبدأت أولى خطوات تنفيذ الخطة. تتبعت بهيجة أخبار جودت التي تمتلئ بها أحاديث النميمة النسائية. كانت ترتب المعلومات التي تحصل عليها وتجري

obeikandl.com

تحرياتها الدقيقة لمعرفة الحقيقي منها للاعتماد عليه في خطتها. وصلت تقريبا لأسماء معظم النساء اللواتي تربطهن علاقة بجودت. بعد أن جمعت المعلومات اللازمة بدأت في الظهور أمام جودت. كانت متأكدة تماما من أنه سيلتقط الطعم بسهولة لأنها تمثل بالنسبة له حلما لم يتحقق، فقد حاول كثيرا معها ولم يحصد سوى الفشل والخيبة. التقط الطعم بسهولة كما توقعت وبدأ يمني نفسه بنوالها. مع الوقت، ونتيجة لطريقتها الناعمة معه في الكلام، بدأ يراودها عن نفسها. في البداية صدَّته صدًّا ناعما يعطي أملا أن المحاولات ستؤتي ثمارها، ثم تحول الصد إلى قبول حذر مما شجعه على دعوتها لزيارته في بيته. رفضت تماما فكرة الذهاب إلى بيته متعللة بأن بيت العثمانلي موضع شبهة لكل من تقترب منه بسبب الشائعات المنتشرة بين أهل الحي، وعرضت عليه أن يزورها في بيتها في ليلة سفر زوجها لزيارة أهله. اتفقا على كل شيء وحددا موعد اللقاء في بيتها. في الليلة الموعودة ذهب جودت وهو يمني نفسه بليلة جميلة طالما حلم بها واشتهاها. استقبلته بهيجة بابتسامة جميلة ودعته للدخول، فدخل مسرعا قبل أن يشاهده أحد من المارة. ما كاد يجلس على الكنبة حتى فُتِحَ الباب ودخل أبو رجيلة مدعيا الصدمة والمفاجأة لوجود رجل غريب في بيته. تملك الرعب من نفس جودت وتفككت مفاصله تماما وهو يرى سكينا على رقبته ويسمع تهديدا له بالذبح. خرجت بهيجة وبيدها الأوراق المطلوب التوقيع عليها، ووضعت جودت أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يوقع على العقد وإيصالات الأمانة، وإما أن يذبحه أبو رجيلة مدعيا أنه هجم على بيته يريد اغتصاب زوجته. لم

obeikandi.com

يستغرق وقتا طويلا في التفكير فأمسك القلم ووقع على كل الأوراق المطلوبة دون أن ينطق بحرف. بعد التوقيع بدأت الخطوة التالية، أعطت بهيجة لجودت مهلة شهر ليغادر بيت العثمانلي وفي خلال تلك المدة يعلن للناس أنه باع بيت العثمانلي لأبي رجيلة وزوجته لرغبته في السفر إلى تركيا ليكمل حياته بجوار أسرته، مع تهديده باستخدام إيصالات الأمانة لسجنه وفضح علاقاته ببعض النسوة أمام أزواجهن إن لم ينفذ كل المطلوب منه حرفيا. مر الشهر وسافر جودت تاركا كل شيء لبهيجة التي صارت المالكة الجديدة وسط دهشة الجميع. حينها عرفت بهيجة قيمة الأسرار لمن يحسن استغلالها، ومن يومها صارت الأسرار هي تجارتها الأهم والأربح

***

تعددت زيارات بهيج لبيت العثمانلي. كلما طلبت بهيجة أن تراه تأمر عزوز الذي يأمر بدوره حنجل أن يصطحب اعتماد وبهيج إلى هناك. مع كل زيارة تزداد حدة الخلافات بين صفية المتخوفة جدا من تلك الزيارات، سواء على طفلها الذي تخشى أن تفقده، أو على اعتماد خشية أن تستقطبها بهيجة فتعتاد على بحبوحة العيش في بيت العثمانلي، وبين عزوز الماضي في عزمه على إتمام اتفاقه مع بهيجة مهما تكن النتائج والعواقب. في تلك الزيارات المتكررة، ارتبطت اعتماد كثيرا ببيت العثمانلي وساكنيه. أحبت أم نجاتي جدا فهي تعاملها معاملة حسنة، كما ارتبطت جدا بآمال واعتبرتها أختا من أخواتها. كذلك ارتبطت آمال ببهيج كثيرا فأطلقت عليه لقب (هوجة) فصار لقبه الذي يناديه به الجميع، عدا أمه. لم تكن بهيجة ترى بهيج كثيرا بسبب انشغالها

obeikandl.com

الدائم، لكنها كانت تغدق عليه بالمال والهدايا وترسل مع اعتماد أموالا لإخوتها الصغار، فكان الخير من جراء تلك الزيارات يعود على الكل وهو ما كان يقوي دائما موقف عزوز أمام صفية. أما حنجل، فقد وقع كليا تحت سيطرة بهيجة ودار في فلكها، تأمره فيطيع وتنهاه فينتهي، لم لا وهي تقربه رويدا رويدا من حبيبة القلب. زادت حدة الشقاق والخلافات بين راضي وتوأمه، فهو يزداد يوما بعد يوم رفضا لوجود بهيجة في حياتهم بينما تزداد راضية يوما بعد يوم اقتناعا بأهمية وجودها في حياتهم وأهمية دور بهيج في ذلك. صفية بالطبع تلاحظ ذلك وتشعر به فتزداد خوفا وحزنا لما أصاب بيتها منذ أن تطفلت بهيجة على حياتهم وزرعت بذرة الفتنة التي تراها تنبت يوما بعد يوم.

ذات يوم، وبعد إتمام بهيج عامه الأول، عاد عزوز إلى البيت وفي يده قطعة من زهرة الصبار قدمها إلى زوجته. في لهجة ساخرة قالت

... يا ما جاب الغراب لأمه، إيه اللي انت جايبه ده يا معدول؟!

قال وهو يجلس على الدكة الخشبية

... كنت معدي ناحية القرافة فقولت أجيب لك صبار معايا عشان تفطمي الواد

... ومن إمتى إن شاء وانت بتشغل بالك بالحاجات الحريمي دي؟

ألقى عكازه جانبه بعصبية قائلا

... يعني الحق عليا إني وفرت عليكي المشوار؟

... كتر خيرك، دايما جلاب الخير، بس أنا مش هفطم الواد دلوقتي

... ليه يعني؟! طول عمرك بتفطمي عيالك لما يكملوا سنة

obeikandl.com

... بهيج هيرضع لغاية ما يكمل سنتين

بسخرية شديدة قال

... ليه؟ على راسه ريشة؟

قالت وهي تدير له ظهرها وتبتعد في اتجاه حجرتها

.... لا وانت الصادق، ده عليه العين والنية

ابتلع غضبه وكتمه في صدره خشية أن تخرج ما في صدرها، وعندئذ لن تمر الليلة بسلام، لكنه لم يستسلم أو يفقد الأمل، بل عزم على تكرار المحاولة.

أرسلت بهيجة في طلب عزوز لتستفسر منه عن سبب تأخير إتمام الاتفاق. وقف أمامها مرتبكا لا يدري ماذا يقول، فما عنده من أخبار لن يعجبها بالطبع، لكنه لم يكن أمامه إلا أن يحكي لها ما تم بينه وبين صفية بالتفصيل. حاول استجماع شجاعته الهاربة فتنحنح قائلا

... معلش يا ست الكل، هنأجل الموضوع شوية

ألقت سيجارتها على الأرض وداستها بحذائها بغضب وهي تقول

.... شوية قد إيه يعني؟!

.... يعني شهرين تلاتة كده

بنفاد صبر قالت

... الواد تم السنة من إسبوعين، يعني المفروض إنه اتفطم، يبقى إيه اللي معطِّل الموضوع؟

مسح حبيبات العرق التي نزَّت بغزارة من جبينه وقال

obeikandl.com

... بصراحة يا ست بهيجة، صفية مصممة إن بهيج يتفطم لما يتم سنتين.

احمرَّت عيناها غضبا بمجرد أن سمعت ذلك الكلام. قالت بعصبية شديدة وقد احمرَّت عيناها

... اسمع يا اعرج، أنا الكلام المايع ده ما يمشيش معايا أبدا. إحنا اتفقنا آخد الواد بعد ما يتم سنة، حصل ولَّا لأ؟

باضطراب شديد ولجلجة واضحة قال

... حصل يا ستِّنا حصل

... خلاص يبقى الاتفاق يتنفذ

... بس يا ست الكل

لم تمهله حتى يكمل جملته وقالت بلهجة تحمل التهديد والوعيد

... ما فيش بس، قدامك إسبوعين ما فيش غيرهم، يا إما بهيج ييجي يعيش هنا، يا إما انسى أي اتفاق حصل بيني وبينك، وساعتها ما تزعلوش مني كلكم.

خرج من عندها تائها مشوش التفكير، وجد نفسه واقعا بين المطرقة والسندان، فصفية لن تتراجع عن رأيها وبهيجة وضعت العقدة في المنشار.

* * *

لاذ بقرعة البوظة وسيجارة الحشيش عند زغلول الجحش. كل شيء أصبح على المحك، أمامه أسبوعان مهلة، إما أن يربح فيها كل شيء أو يخسر كل شيء. ارتعدت فرائصه بمجرد أن تخيل فشل الاتفاق مع بهيجة، فلن تكون الخسارة المادية هى المحصلة النهائية من ذلك، لكنه سيحصد أيضا عداوة مع بهيجة لا قبل له بها، فهي تملك النفوذ والعلاقات كما تملك المال.

obeikandl.com

... ليه يا صفية بتعملي كده؟!

قالها وهو يخبط رأسه بكفه، مندهشا من موقف زوجته العنيدة التي تحركها عاطفتها العمياء دون نظر للصالح العام. قطع صوت دكروري الأجش على عزوز تفكيره وهو يجلس بجواره ملقيا السلام.

... إنت إيه حكايتك يا صاحبي؟ دايما قاعد لوحدك وشايل الهم

... الدنيا مش سايبة حد في حاله يا دكروري

.... وإيه الجديد يعني؟! ما طول عمرها كده

... الجديد إني تعبت وزهقت

بمكر شديد قال دكروري

.... تعبت وزهقت من إيه يا صاحبي؟! ما انت ما شاء الله البلية لاعبة معاك وغرقان في خير بيت العثمانلي.

في الفترة الأخيرة، لم يكن لدى دكروري سيرة يحكيها في قعدات المزاج سوى زيارات بهيج إلى بيت العثمانلي. كان يروج أن عزوز بصدد بيع ولده لبهيجة طمعا في المال. بالطبع كان يتكلم في ذلك في غياب عزوز، إلا أن عزوز كان يعرف كل شيء من خلال رفقاء المزاج، فجلسات المزاج لا تخلو من القيل والقال. اعتدل عزوز في جلسته متكئا على عكازه، وجه نظره مباشرة إلى دكروري وابتسم ابتسامة ماكرة قائلا.

.... عندك حق يا دكروري، بيت العثمانلي خيره كتير، والشاطر اللي يمد إيده ويغرف

obeikandl.com

محاولا ارتداء ثوب الواعظ الحكيم، قال دكروري وهو يأكل عودا من الجرجير

... بس الشاطر ما يبعش عَيِّله ولا يتاجر فيه يا صاحبي

بنفس الابتسامة الماكرة، ودون أن يحول نظره عن دكروري، قال بصوت عال

... يا معلم زغلول

جاءه صوت زغلول من آخر الدكان مجيبا

... خير يا عزوز

... واحد معاه رغيف وقطع لقمة منه ورماها لكلب سعران عشان يتقي شره ويحافظ على باقي الرغيف، وواحد ساب الكلب ياخد منه الرغيف كله غصب عنه، يبقى مين فيهم المقطف؟

دون تردد أو تفكير قال زغلول

.... المقطف اللي يتاخد منه حاجة غصب عنه يا اعرج

وهنا ابتسم عزوز ابتسامة ساخرة صفراء وأشار بسبابته إلى دكروري موجها الكلام لزغلول

.... طيب قول للمقطف عشان أنا مخاصمه

ساد الدكان ضحك هيستيري من كل الموجودين بينما عبس دكروري وقد احمَّر وجهه وغادر الدكان مسرعا وهو يلعن عزوز ويسبه بكل الألفاظ القبيحة.

* * *

obeikandi.com

نلجأ أحيانا للخداع والكذب وقلب الأمور وإلباس الباطل ثوب الحق، خاصة عند الدفاع عن مواقف اتخذناها أو ننوي اتخاذها. أحيانا تفلح تلك الطريقة في هزيمة الطرف الآخر وتحقيق انتصار مبين لوجهة نظرنا، لكننا في داخلنا نشعر بمرارة تفسد علينا حلاوة الانتصار ونشوته. تلك المشاعر تملكت من عزوز بعد مغادرة دكروري، فرغم أنه انتصر عليه وجعله مادة خصبة لسخرية كل الموجودين بدكان البوظة، إلا أن كلام دكروري كان خناجر غُرِست في كبده، فهو يعرف جيدا في قرارة نفسه أنه يتاجر بابنه لتحقيق منفعة مادية. لم يشفع له أمام نفسه أنه يفعل ذلك للصالح العام وليس لمصلحة شخصية، وشعر باحتقار لذاته بشكل موجع، لكنه لا يملك رفاهية التراجع عن الاتفاق. عاد مرة أخرى إلى حالة التفكير العميق التي أخرجه منها دكروري. ظل يبحث عن حل لتلك المعضلة فلم يجد إلا حلا واحدا لا ثاني له، أن يتم الموضوع رغما عن إرادة صفية، لكن كيف يمكنه تحقيق ذلك وهو يعرف أن المواجهة المباشرة مع صفية تؤدي حتما إلى كوارث وأشياء لا يُحْمَد عقباها. هداه تفكيره بعد عناء شديد إلى إبعاد صفية عن البيت ليتمكن من نقل بهيج ومعه أمتعته إلى بيت العثمانلي بشكل نهائي. وجد أنه في احتياج إلى معاونة من أولاده في تنفيذ ذلك المخطط، من ناحية يضمن تنفيذ المخطط دون الوقوع في أخطاء تأتي بنتائج عكسية قد تؤدي إلى فشل المهمة مع صعوبة تكرارها، ومن ناحية أخرى فهو يحتاج إلى شركاء في جريمته تلك حتى لا يُتَّهَم أنه اتخذ قرارا فرديا لمصلحة شخصية.

* * *

obeikandi.com

أغلق دكروري ورشته بعد يوم طويل من الجلوس أمام الكير المشتعل. تقع الورشة في نفس البيت الذي يسكنه. بعد أن تناول العشاء مع زوجته وولده، جلس يدخن الجوزة بينما يشرب كوبا من الشاي الثقيل، قرر أن لا يذهب، كعادته، إلى دكان زغلول الجحش لشرب البوظة. لم تكن حالته المزاجية على ما يرام، فكلام عزوز وخزه فأوجعه، وذهب به بعيدا عبر ذكريات سيئة للغاية مع بهيجة. كل تجاربه معها مريرة جدا، بدءًا من عداوتها الشديدة التي كان سببها رفضها الشديد زواج أخيها من أخته، مرورا بالمشاكل الكثيرة التي سببتها بين أخته وزوجها بعد الزواج ومحاولاتها المستميتة للتفريق بينهما، وصولا إلى شكه في الطريقة التي ماتت بها أخته مع زوجها إثر تناول وجبة فسيخ فاسدة أحضرتها لهما بهيجة. يعتقد دكروري أن بهيجة هي من دبرت تلك الميتة البشعة لتتخلص منهما، رغم عدم امتلاكه أي دليل يعزز ذلك الاعتقاد.

لم يستطع نسيان ما فعلته بهيجة لتنتزع منه آمال ابنة أخته، وكيف أرسلت له التهديدات الصريحة والواضحة بالقتل هو وزوجته وابنه إذا رفض تسليمها البنت كي تنشأ وتترعرع في بيت العثمانلي. تلك الليلة المشؤومة التي لن ينساها أبدا، حين كان عائدا من سهرة في دكان زغلول الجحش، بينما كان يسير منتعشا من أثر شرب البوظة، هجم عليه ثلاثة ملثمين وقيدوه ثم جرحه أحدهم جرحا غائرا في رقبته، لكنه كان ماهرا بالقدر الكافي لتجنب قتله، فالمطلوب إرهابه وليس قتله. رحلوا وتركوه مدرجا في دمائه بعد أن قال له أحدهم أن المرة القادمة ستكون حياته هي ثمن عناده.

obeikandl.com

وصل الأمر إلى استخدام نفوذها ومعارفها للتضييق عليه في عمله، فتعرض لمضايقات الشرطة فداهمت ورشته أكثر من مرة بدعوى وجود أسلحة، كما تم منع العديد من السكان من التعامل معه. دكروري كان صديقا مقربا من زوج بهيجة المختفي، تقريبا كان الصديق الوحيد ويعرف كل التفاصيل الدقيقة في حياته. هو الوحيد الذي اعترف أمامه أبو رجيلة، وهو يبكي، بعجزه الجنسي الذي لم يمكنه من الدخول بعروسه. المرة الوحيدة التي اختلفا فيها وتخاصما، كانت بسبب بهيجة. يومها جاءه أبو رجيلة متوترا ومضطربا اضطرابا شديدا

كان يوما شتويا شديد البرد وغزير المطر، حين دخل أبو رجيلة مسرعا إلى ورشة دكروري هربا من المطر. أنزل عن كتفه حجر المَسَن ذا الحامل الخشبي الذي يتوسطه بالطول عجلة خشبية كبيرة تلف بواسطة حزام جلدي غليظ. جلس بجوار الكير المشتعل طلبا للدفء. أثناء شرب الشاي قال أبو رجيلة بصوت مضطرب.

... عايزك في موضوع مهم يا صاحبي

باهتمام واضح أصغى دكروري لكلام صديقه قبل أن تتملكه الدهشة مما يسمع. وضع الكوب الزجاجي الذي ما زال البخار الساخن يخرج منه رغم فراغه. سكت لحظة ثم بدأ في الدخول مباشرة في الموضوع.

... ويا ترى بهيجة عارفة الحكاية وما فيها؟

أطرق أبو رجيلة برأسه خجلا ثم قال بصوت يُسْمَع بالكاد

... عارفة

obeikandl.com

... يعني انت قلت لها على كل حاجة؟

قال باكيا

... مش انا اللي قلت لها، دي طليقتي الله يسامحها

يومها حذره من بهيجة ومن ألاعيبها. أعرب له عن عدم ارتياحه للحكاية كلها، فما الذي يجبر أنثى كبهيجة، ترفض معلمين وتجارا كبارا على الزواج من رجل به عيب كهذا.

....يا صاحبي بهيجة دي مش واحدة عادية، بميزان الحريم ست كاملة متكاملة، بميزان الرجولة ست بميت راجل، بميزان السوق هي كوبانية كاملة تبيعك وتشتريك، وفي الحالتين تبقى كسبانة.

لم يعبأ أبو رجيلة بكلمة واحدة من كلام صديقه، فهو كالغريق المتعلق بقشة ينشد فيها النجاة من سخرية الناس والمعرة التي يعيشها بكل تفاصيلها. قال بيأس شديد وهو يقوم ليحمل مسنه على كتفه.

قالوا للقرد هيسخطوك، ما يحس بالنار إلا اللي كابشها بكفه يا صاحبي.

خرج من الورشة متجاهلا نداء صديقه وهو يصرخ عاليا كأنه يحاول طرد همومه.

أسِن السكينة والمقص.

لا زال آخر لقاء له بصديقه محفورا في ذاكرته عصيًّا على النسيان. بعد فترة قطيعة طويلة جدا بينهما، سببها تهرب صديقه منه، وربما الحياة

الجديدة خطفته بعيدا بعد أن صار من الأعيان، جاءه أبو رجيلة مضطربا متوجسا وكأنه يهرب من خطر يطارده. احتضنه وبكى بكاء شديدا

... ما كنتش قادر أبص في وشك يا صاحبي

طيب دكروري خاطر صديقه وأجلسه، طلب منه أن يهدأ تماما ولا يتكلم إلا بعد أن يشربا كوبين من الشاي الثقيل. بعد أن انتهيا من شرب الشاي، نظر دكروري إلى صديقه نظرة اهتمام واستعداد إلى الاستماع بإصغاء شديد. بدأ أبو رجيلة في الحديث عن شكوكه في أن بهيجة تدبر شيئا في الخفاء

... شكلها عايزة تخلص مني

كان الارتباك واضحا جليا في صوت أبو رجيلة، ووجهه ينز هلعا، فجاءت كلماته غير مرتبة أو مفهومة، لم يفهم منها دكروري سوى أن هناك سرا بين صديقه وبهيجة، وأنهما اختلفا فساءت الأمور بينهما ودبت الخلافات.

... بهيجة دي غول يا دكروري، ما فيش في قلبها رحمة، وممكن تعمل أي حاجة

... قلت لك من الأول يا صاحبي، بس انت ما سمعتش كلامي

اعتدل أبو رجيلة في جلسته بعد أن عدل جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ وقال وهو يستجدي العذر من صديقه

... أنا ما ليش دعوة بمشاكلكم مع بهيجة يا دكروري، بهيجة كلامها من راسها وما فيش حد بيقدر عليها

obeikandl.com

طمأنه دكروري بأنه يعرف تماما أن بهيجة تتصرف كما يحلو لها. وضع يده على كتف صديقه وسأله باهتمام واضح

... وانت هتعمل إيه دلوقتي يا صاحبي

... مش عارف، مش عارف

قام وهو يرتعد، حتى دون أن يلقي السلام وخرج مهرولا وهو يحدث نفسه بكلام غير مفهوم، وكان ذلك هو اللقاء الأخير بينهما قبل أن يختفي أبو رجيلة تماما.

تململ في جلسته حين تذكر ذلك اللقاء الأخير بصديق عمره، فألقى الجوزة من يده وارتدى ملابسه ليذهب إلى دكان زغلول الجحش. في الشوارع الخالية من المارة مشى بخطوات بطيئة ثقيلة يفكر في صديقه الغائب. لا يمكنه أن يجزم بمصير صديقه، فربما قتلته بهيجة وتخلصت من جثته، أو ربما هرب خوفا من ذلك المصير. يعرف دكروري أن صديقه يخشى من أي وكل شيء، فمنذ أن عرفه وهو يراه يهرب من أي مواجهة أو مشكلة.

... يا ترى فينك يا طيب؟

صرخ بها فتردد صداها بين جدران البيوت والدكاكين. أفرغ قرعة البوظة في جوفه مرة واحدة قبل أن يخبطها بقوة على الطاولة. لم يتحدث مع أحد من زبائن البوظة وجلس بعيدا عنهم. لاحظ الجميع شروده وعلامات المزاج السيء الذي بدت عليه فلم يكلمه أحد وتركوه لعزلته.

obeikandi.com

هل قتلت بهيجة زوجها وأخاها؟ هل قُتِلَت أخته بيد بهيجة؟ سؤالان قاتلان يتلاعبان بأعصابه فيشعلانها، يدفعانه لارتكاب حماقات لولا خوفه على ولده الوحيد وزوجته. لم يتبق له سوى الانتصار على بهيجة لاستعادة آمال، وبعدها يفعل الله ما يشاء. بدأ خطته بالفعل منذ فترة ليست بالقصيرة. أم نجاتي هي عينه في بيت العثمانلي، استطاع الاتفاق معها مستغلا عطفها على آمال كطفلة يتيمة الأب والأم. كانت تنقل له أخبار آمال فقط في البداية، ثم تطور الأمر بعد ذلك حتى وصل إلى نقل كل ما يدور في بيت العثمانلي

يدرك تماما صعوبة المعركة ومداها الطويل، فهي تحتاج إلى صبر وحنكة شديدة، فتحدي شخصية كبهيجة شيء في منتهى الخطورة ومن الممكن أن يؤدي إلى كارثة. تذكر عزوز مرة أخرى فانتابته قشعريرة شديدة هزت بدنه هزا. شعر برغبة في قتله بعد أن سخر منه وجعل منه مهزأة كل زبائن البوظة، لكن تراجع وتمالك زمام نفسه وحاول التفكير بهدوء. عرف بطريقته أن صفية لا ترضى عن تصرفات عزوز بخصوص زيارات بهيج الكثيرة لبيت العثمانلي. جاءته فكرة شيطانية فابتسم ابتسامة من وجد ضالته، فها هي الطريقة التي يرد بها الصاع صاعين لعزوز، ومن ناحية أخرى يضم إلى صفوفه عدوا آخر لبهيجة، ما كان ذلك العدو سوى صفية.

* * *

الكل في بيت العربجي نائم، إلا هي. لم يستطع الليل بدثاره الأسود أن يهدي النوم إلى عينيها. قارَب الليل على الانتصاف، و كل شيء هادئ

obeikandi.com

ساكن. أمام الفرن، تجلس صفية بين الأقراص الطينية التي تحمل على سطحها قُرَص العجين الجاهز للخبز. تضع الحطب وقِطَع الخشب الصغيرة في الكوة السفلى للفرن. ينام الصغير في حجرها هادئا مستكينا. هي لا تخبز عادة في هذا الوقت، فقد اعتادت، كما علمتها أمها، على الخَبْز بعد صلاة الفجر، إلا أنها شعرت بعد صلاة العشاء برغبة شديدة في زيارة قبر والديها فقامت وبدأت في نخل الدقيق وعجنه ثم انتظرت إلى أن خمَّرَته وصار جاهزا للتقريص والخبز. لا بد وأن تكون القُرَص جاهزة في الصباح لتوزيعها في المقابر علي الفقراء رحمة ونورا على روح عكاشة وزبيدة. لم توقظ اعتماد لتساعدها كالعادة، فقد كانت في حاجة إلى أن تبقى وحيدة لتختلي بنفسها، فعندها من الهموم والقلق ما يستدعي مناجاة النفس والتفكير بهدوء

انتهت من وضع الحطب اللازم لخبز كمية القُرَص المطلوبة. وضعت وسادة كبيرة على الأرض بجانبها ثم وضعت بهيج فوق الوسادة لتبدأ في إشعال الوقود. سكبت نصف زجاجة الجاز فوق الحطب الذي يملأ الكوة السفلى للفرن ووضعت الزجاجة بجانبها. أشعلت النار في الحطب وبدأت في تقليبه بسيخ حديدي حتى تحمي الفرن جيدا. بينما هي منهمكة في تجهيز الفرن خرجت بعض الدجاجات من الحظيرة الخشبية التي تشغل الجانب الأيسر من الفناء. اقتربت الدجاجات من الأقراص الطينية مما جعل صفية تنهض مسرعة لمنعها من أن تطأ العجين بأقدامها، لكنها خبطت زجاجة الجاز بيدها دون أن تشعر. فمالت على الأرض وانسكب

obeikandl.com

الجاز على الحطب الموجود على يمين الفرن، ومنه ما زحف على الأرض في اتجاه الوسادة التي ينام عليها بهيج. ظلت تطارد الدجاج محاولة إعادته إلى الحظيرة، لكنها فزعت عندما سمعت صراخ بهيج فالتفتت لتجد النار قد اشتعلت في كل الحطب وكذلك في الوسادة. انخلع قلبها من هول المشهد فهرولت تجاه الولد ولم تعبأ بالعجين الذي داسته بقدميها. أطفأت النار المشتعلة في ملابس الولد قبل أن تضمه إلى صدرها وهي تشم رائحة لحمه الذي شوته النار. في هذه الأثناء، اشتعلت النار في ذيل جلبابها الذي طالته كمية من الجاز المسكوب فصرخت وانطلقت تجري في كل أنحاء الفناء الذي تحول إلى جحيم مستعر.

شاهدت بعينيها النار وهي تحاصر عزوز الذي كان نائما فوق الدكة الخشبية قبل أن تلتهمه وتقضي عليه. لم تمهله النار حتى يلتقط عكازه الخشبي ليتمكن من الهرب. شاهدته وهو شعلة نار تقفز قفزات سريعة حتى خمدت تماما. كانت كلما ذهبت إلى موضع في البيت طالته النار المشتعلة في جلبابها، فحاصرت النار كل شبر في البيت. في دقائق قليلة صار البيت شعلة رهيبة أضاءت ليل الجمالية الحالك، فلم ينجو من أهله إلا هي ورضيعها الذي لم يتوقف عن الصراخ لحظة واحدة. اقتحم أهل الحي البيت وأخرجوها ورضيعها إلى الشارع وبدأوا في إطفاء النار. سترتها النسوة بجلباب بدلا من ذلك الذي احترق نصفه الأسفل بالكامل. تشاهدهم بحسرة وذهول وهم يتناولون دلاء الماء ليطفئوا بها الحريق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. تعلقت عيناها بالباب وهي تمني نفسها برؤية أحد أبنائها يخرج حيا. بعد

obeikandi.com

أن أطفأوا الحريق، قضوا وقتا في مواساتها قبل أن يرحلوا تباعا ويتركوها جالسة في وسط الشارع وفي حجرها رضيعها المسكين.

صهيل فرس خفيض أتى من ناصية الشارع يخترق السكون الذي غلف كل شيء. نظرت صفية بلهفة لمصدر الصوت فوجدت الحنطور يتقدم ببطء وفي مقدمته رجل يمسك سرج الحصان. لم تتبين، في بادئ الأمر، ملامح ذلك الرجل الغامض المتوشح برداء ينساب من رأسه حتى قدميه. يقترب بينما تعلو معه دقات سنابك الفرس وصوت دوران العجلتين الخشبيتين للحنطور على أرضية الشارع الحجرية. مسحت دموعها بكفها وقد اتسعت عيناها قدر الإمكان لتتمكن من رؤية ذلك الغريب المجهول القادم من الظلمة مقتربا من المصباح الوحيد الذي لم يطفأ في الشارع. يهدأ وجيب صدرها شيئا فشيئا، رغم التوتر الواضح الذي اعتراها بإيقاع يتزايد كلما اقترب الرجل أكثر.

تبين لها لون الرداء الأبيض الذي ينسدل على عمامة خضراء كبيرة نسبيا، وجلباب أبيض زاهٍ ذي أكمام فضفاضة. هبت على صدرها نسائم عطر تعرفه ولا تميزه. سقطت أشعة الضوء المندفع من المصباح على الجانب الأيمن من وجه الرجل فمزقت غلالة الظلمة التي تحيط به وكشفت بعض الملامح. فغرت فاها واتسع بؤبؤا عينيها حتى كادا أن يخرجا من محجريهما عندما تبينت ملامحه بوضوح. توقف الحنطور لكن الرجل تقدم منها بعد أن أفلت سرج الحصان من يده. ظهرت من تحت الرداء مسبحة مئوية الحبَّات، حباتها الخضراء تومض وهي تتحرك بين أصابع كفه اليمنى. فاضت عيناه وانتابته غصة شديدة حين رأى أطلال بيته فقال بصوت يحمل كل طبقات الحزن والحسرة.

obeikandl.com

... هي دي الأمانة اللي انا قلت لك حافظي عليها يا صفية؟!!

ألجمتها الدهشة فلم تنطق، فلم يكن المجهول القادم من تلك الظلمة سوى عكاشة، أبيها!.

حاولت أن تتكلم، تصرخ، تعبر عن دهشتها، فالواقف أمامها الآن يتنفس ويتحرك ويتكلم، هو عكاشة بشحمه ولحمه، أبوها الذي مات منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، لكنه أسكتها بإشارة من يده دون أن ينطق بحرف. تجول بعينيه في كل أنحاء البيت الذي تتصاعد من بين جدرانه خيوط الدخان وهو يقَلِّب كفيه على ما أنفق فيه من عمر وجهد، بينما تتابعه عيناها بهلع واضح. دارت بها الدنيا وتفصد جبينها عرقا باردا وهي تحاول إيجاد تفسير واحد لما يحدث. سألت نفسها إذا كان أبوها عاد إلى الحياة بالفعل، لكنها أجابت نفسها سريعا أن الموتى لا يعودون. ربما لم يمت من الأساس، هكذا حاولت إقناع نفسها لكن فشلت في ذلك أيضا فقد مات أبوها على صدرها. هاتف خفي أوحى لها أنها هي التي ماتت فشعرت بارتياح شديد لهذا الهاجس، ففيه الخلاص مما هي فيه، فالبيت خَرِب والأبناء احترقوا ولم يبق ما تحيا من أجله. ضمت رضيعها إلى صدرها وهي تبتسم ابتسامة أقرب للبكاء وقالت.

... كده أحسن يا بهيج، أريح كتير يا ضنايا، خلصنا من عزوز ومن بهيجة ومن الدنيا كلها، وهنتجمَّع مع بعض تاني، ربك أرحم من عباده، ما عندوش ظلم ولا حد بياخد حق حد.

لم ينغِّص شعورها بالارتياح سوى ملامح الحزن والغضب المنحوتة في وجه أبيها، وتلك الحسرة واللهفة التي يشعر بها وهو يعاين البيت الذي شيده

obeikandl.com

وعاش فيه أجمل سنين عمره. قالت لنفسها أن أباها غير سعيد برؤيتها، وهذا معناه أنها لم تَمُت، فلو ماتت لكان سعيدا الآن بقدومها وانضمامها إليهم لتشاركهم حياتهم. لم يخرجها مما هي فيه سوى السؤال الذي كرره أبوها قائلا.

... هي دي الأمانة اللي أنا قلت لك حافظي عليها يا صفية؟

قالت وهي تلتمس منه العفو والمغفرة

... غصب عني يا ابا، كنت خايفة على العجين من الفراخ

بابتسامة حزينة ساخرة قال

... وفي الآخر انتي اللي دوستي العجين برجليكي!!

أطرقت برأسها معترفة وقالت

... كنت خايفة على بهيج من النار

بنفس الابتسامة الحزينة قال

.... حرقتي البيت واللي فيه عشان تحمي بهيج من النار، وفي الآخر برضه طالته

نظرت إلى التشوهات التي سببها الحريق في ساقي بهيج ثم أجهشت في البكاء دون أن تنطق بكلمة

اقترب منها وجثا على ركبتيه وقد رق لحالها. قبض على كتفها وهزَّها هزًّا خفيفا وهو يقول.

... وبعدين يا بنت عكاشة؟ هتفضلي قاعدة زي الولايا كده؟!

obeikandl.com

قالت فيما يشبه الاستغاثة

.... تعبت يا ابا ومش عارفة أعمل إيه

قال بعد أن مسح بكفه على جبينها وربت على كتفيها

... عارفة يا صفية انتي كنتي عاملة زي إيه؟ زي واحد شايل شوال قمح على ضهره، وفجأة اكتشف إن الشوال مخروم والقمح بيقع منه، وبدل ما يخيط الشوال شغل نفسه في لَم القمح اللي بيقع على الأرض.

في حيرة واضحة قالت

... يعني إيه مش فاهمة

قال وهو ينهض استعدادا للرحيل بحصانه

.... يعني كان لازم تخيطي الشوال الأول يا صفية وبعدين ابقي لمي القمح اللي وقع براحتك. كان لازم تحاولي تنقذي بيتك على قد ما تقدري وتجمعي ولادك حواليكي قبل ما يروحوا هما كمان

مشى حتى غاب عن نظرها دون أن يكترث لصراخها ونداءاتها المتكررة، وصدى جملته يقلق سكون الشارع...، كان لازم تخيطي الشوال يا صفية، كان لازم تجمعي ولادك حواليكي يا صفية

تململ الطفل في حجرها ثم بكى بكاءً مكتوما وهو يتحسس ثديها، فعلمت أنه جائع. أدخلت يدها في صدرها لتخرج ثديها ترضعه، لكنها لم تجده!. حركت يدها في ذهول للثدي الآخر فلم تجده أيضا. شقت جلبابها في ذعر شديد لتعاين صدرها فوجدته مسطحا مستويا لا نتوء فيه وكأنه خلق هكذا. لطمت

obeikandi.com

خديها وهي تنظر حولها نظرات فزع وكأنها تبحث عن ثدييها فوق أرضية الشارع بينما تصاعد بكاء الطفل الجائع. خدر شديد سار في ساقيها منعها من الحركة، مات نصفها الأسفل تماما. اختلط بكاء الطفل بضحكات هيستيرية تأتي من خلفها. لم تر الضاحك غير أنها تعرفه جيدا، إنها بهيجة. التفتت فوجدت بهيجة قادمة من مسافة قريبة تتحرك بخطوات رشيقة متراقصة. عندما اتضحت الرؤية وتجلت الملامح والتفاصيل، وجدت بهيجة تقبض على ثديين مجتثين. رفعت يديها لأعلى وهي تحركهما يمينا ويسارا. قبضت صفية موضع ثدييها في حسرة وألم وهي تنظر إلى بهيجة نظرة انكسار واعتراف بالهزيمة. بعد ابتسامة متشفية، ضغطت بهيجة على الثديين فخرج من حلمتيهما اللبن على أرضية الشارع. كانت تحركهما وكأنها ترسم لوحة باللبن بينما تصرخ صفية بشدة مع كل ضغطة فيعلو بكاء الطفل أكثر. نفد اللبن وبدأت الحلمتان تقطران دما ثم بحركة خاطفة ألقت بهيجة الثديين على الأرض، واقتربت من صفية أكثر حتى صارتا في المواجهة تماما. أشارت بكلتا يديها المفرودتين إلى بهيج وحركت كفيها بإشارة تعني "هاتي الولد" لكن صفية تمسكت به وحاولت ضمه إلى صدرها. انقضت بهيجة على الطفل محاولة انتزاعه من بين ذراعي أمه المجهدتين، لكن المرأة تشبثت بشدة بطفلها صارخة بكل ما أوتيت من قوة

... ابني لأ.. بهيج لأ

بينما هي تصرخ مستغيثة جاءتها يد تهزها بشدة وصوت يزجرها صارخا

... يا أمي الواد هيموت في إيدك

obeikandl.com

استيقظت فزعة على صوت اعتماد وهي تحاول إنقاذ بهيج من بين يديها القابضتين عليه بقوة.

قضت صفية ما تبقى من ليلتها في تجهيز القُرَص، رغم شعورها بالإجهاد الشديد الذي سببه لها ذلك الكابوس المفزع. عندما قامت فزعة من نومها وجدت اعتماد بجوارها تحاول تهدئتها. كان الولد يبكي بجوار أمه النائمة، فذهبت اعتماد لتحمله حتى يهدأ ولا يزعج أمه، لكن فوجئت بأمها تقبض بيديها على الولد وهي تصرخ بشدة وكادت أن تخنقه بيديها لولا أنها استقيظت في الوقت المناسب.مع بزوغ أول ضوء للفجر كانت صفية تقف أمام قبر والديها تقرأ الفاتحة. بعد أن انتهت من توزيع القُرَص والبلح على فقراء المقابر أمرت حنجل بالانصراف لعمله لأنها تريد الجلوس إلى قبر والديها لتأنس بهما قليلا. طالت جلستها أمام القبر صامتة، تنظر إليه وكأنها تراهما في الداخل. تخيلتهما يجلسان جلستهما المفضلة، أبوها مستلقٍ على ظهره واضعا رأسه في حِجْر أمها كأنها أمه. هنا تشعر صفية أنها عادت طفلة صغيرة في بيت آمن بين أبوين متحابين، هنا تنسى عزوز والفقر والحاجة وبهيجة وكل المزعجات التي تنغص عليها حياتها، هنا لا تخجل صفية من إظهار ضعفها والتخلي عن شخصية المرأة القوية التي لا تخشى الدنيا ومصاعبها، تلك الشخصية التي سجنت نفسها فيها منذ الصغر. ترى أن قوة أمها لم تكن فقط لأنها امرأة قوية، لكن لأنها امرأة تعيش مع زوج يعشقها. هي الوحيدة التي تشعر بالاختلاف الجذري الذي أصاب بيت العربجي فنقله من حال إلى حال، فهناك فرق كبير بين بيت

العربجي حين كان يسكنه عكاشة ويدير أموره ويرعاه ماديا ومعنويا، وبين بيت العربجي الآن وقد سكنه عزوز الذي استحال – من بعد الحادثة – إلى رجل لا يرى إلا نفسه ولا يهتم إلا بمزاجه. علمها ذلك التغيير أن قوة البيت من قوة ساكنيه وترابطهم. فاضت عيناها وهي تناجي أباها قائلة

... صفية تعبت يا ابو صفية، الريح شديدة والعزم ضعيف، اتهديت وبقيت زي حتة القماش اللي هَلهِلت وبهتت من كتر الغسيل. الدنيا بتتهد فوق دماغي ومش عارفة أعمل إيه. صفية اللي كانت بتقدر تعافر مع الدنيا انتهت خلاص، مش هتقدر تقص شعرها وتلبس لبس الرجالة وتسمي نفسها – بندق العربجي – مش هتقدر تصلب طولها في وش الدنيا وهي مش خايفة، لإن خلاص سندها راح. إنت كنت السند والضهر والعكاز.

مسحت دموعها بباطن كفيها وهي تحاول الثبات وعدم الانهيار. لكن هيهات، فبركانها نشط ولا سبيل لإخماده. قالت وهي تنهنه نهنهة مكتومة.

عارف يا ابا؟ من ساعة ما خرجت من حضنك وانا عريانة وضعيفة. عزوز ما قدرش يعوضني عنك، عمره ما حسسني بالأمان اللي كنت باحس بيه وانا في حضنك، حتى لما خلصني من إيدين عساكر الإنجليز ما شفتش فيه بديل عنك وفضلت أدور عليك لحد ما وصلت لك ورميت نفسي جواك، ساعتها بس حسيت إن الخطر راح. ما فيش راجل في الدنيا يقدر يعوض الست عن حضن

أبوها، ممكن يحسسها بالقوة لو كان بيحبها، لكن مش بتحس معاه بالأمان الكامل اللي بتحسه وهي بين إيدين أبوها، خصوصا لو كان أبوها راجل بقلب المعلم عكاشة.

obeikandl.com

ترتبط صفية ببيتها ارتباطا عجيبا يجعلها تشعر بالحسرة الشديدة لما آل إليه حاله، فبيت العربجي الذي كان بقوة وحصانة القلعة حين كان يسكنه عكاشة، صارت جدرانه كأعجاز نخل خاوية، لا تمنع عنه ريحا، ولا تحميه من معتدٍ، ولا توفر لساكنيه السكينة والطمأنينة، فصار كل واحد منهم في عالم مستقل عن الآخرين.

استعادت كلمات أبيها في الحلم وفكرت جيدا في كل كلمة، واعتبرت أنها رسالة لها معنى ومغزى مهم، وليست مجرد أضغاث أحلام. استرجعت كل الأحداث التي مرت منذ ولادة بهيج وحتى اللحظة التي تجلس فيها أمام قبر أبيها الآن. أدركت أن ما فات أهون بكثير مما هو قادم، وأن القادم أسوأ بكثير ويحتاج إلى صبر وتحمل وبصيرة بالأمور

مسحت دموعها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.

اقتطعت جزءا صغيرا

من نبات الصبار المتواجد بكثرة حول القبر وقامت لتقرأ الفاتحة قبل أن ترحل وفي أذنيها تتردد جملة أبيها (خيطي الشوال يا صفية).

* * *

في الوقت الذي كانت صفية تناجي أباها، كان عزوز يقنع حنجل واعتماد وراضية بأهمية ذهاب بهيج إلى بيت العثمانلي ليعيش هناك. أسهب في إظهار الفوائد التي ستعود على أخيهم، وعليهم أيضا. ظهرت علامات الفزع على وجهي حنجل واعتماد، عكس راضية التي كانت

obeikandl.com

متحمسة للموضوع وترى أن الأوان قد آن للانتهاء من هذه المهمة شديدة الأهمية للجميع. قالت اعتماد راجية والدها.

... يا ابا بلاش نقف قصاد أمي لإنها مش هتسكت

وافقها حنجل فيما قالت وأضاف.

... اعتماد بتتكلم صح يا اباء إحنا نحاول معاها تاني يمكن دماغها تلين.

قاطعته راضية بسخرية شديدة.

... تلين؟! أمك دماغها تلين؟! ده لو قضيب السكة الحديد لان أمك دماغها عمرها ما تلين.

نظرت اعتماد إلى راضية بغضب شديد وقالت بازدراء واضح.

... وانتي شايفة إيه اللي يتعمل يا ناصحة؟

تغاضت راضية عن الطريقة التي تكلمها بها أختها الكبرى وقالت بكل حزم

.... نحطها قدام الأمر الواقع

قال حنجل وقد ظهرت عليه علامات الخوف واضحة جلية.

... العند مش هينفع معاها، دي ممكن تولع في البيت باللي فيه.

باستهانة واضحة قالت راضية.

.... ولا هتولَّع في البيت ولا حاجة، هتشتم وتزعق وتفرج علينا الناس وبعدين هتنزل على ما فيش.

obeikandl.com

تابع عزوز راضية بدهشة ممتزجة بإعجاب وهى تشرح لأخويها، رغم أنها تصغر حنجل بأربع سنوات، أن أمهما لن تفعل شيئا سوى السب والعراك لتثبت أمام نفسها وأمام الجميع أنها بريئة من ترك ولدها لبهيجة، فكل ما يهمها هو صورتها أمام الناس.

.... أمكم عارفة من الأول إن ده هيحصل، وموافقة عليه، بأمارة ما رضيت تاخد الفلوس اللي كانت بهيجة بتبعتها.

نزلت تلك الكلمات التي قالتها راضية بردا وسلاما على قلبي أخويها فظهرت ملامح الارتياح على وجهيهما، وهنا تدخل عزوز الذي ترك المجال لأولاده من البداية ليتناقشوا دون تدخل منه، فقال بصوت هادئ.

... اللي احنا هنعمله ده فيه مصلحة بهيج؟

رد ثلاثتهم في صوت واحد.

... أه

ارتاح لتلك الإجابة الجماعية فسأل سؤاله الثاني.

.... طيب اللي احنا هنعمله ده فيه ضرر على أي حد في البيت؟

رد ثلاثتهم في صوت واحد

... لأ

... خلاص يبقى احنا صح وبنفكر في مصلحة الكل، لكن أمكم فاكرة إنها بتحب الواد أكتر مننا وانها عارفة مصلحته أكتر مننا.

ثم وجه كلامه إلى حنجل وقال في تعاطف مفتعل.

obeikandl.com

... اوعى تفتكر إني فرحان وانا شايفك بتشقى لوحدك عشان البيت يفضل مفتوح؟ بس أعمل إيه ما باليد حيلة، أنا حاسس بيك يا ابني وعارف انت بتتعب قد إيه، وعشان كده أنا مصمم على موضوع بهيج ده عشان أشيل عنك حمل تقيل وفي نفس الوقت أفرح بيك.

بعد أن انتهى من حنجل، وجه كلامه إلى اعتماد قائلا.

.... كل أب بيحلم يشوف بنته عروسة وبيتمنى يجيب لها الدنيا كلها، لكن العين بصيرة والإيد قصيرة، وانا مش هافضل واقف بتفرج عليكي وانتي عمرك بيضيع منك، عشان كده اتفقت مع بهيجة إنها تتولى موضوع جوازك.

ثم وجه كلامه للكل قائلا

.... لو بهيج عاش في بيت العثمانلي، هيبقى حظه حلو ورزقه واسع، وكمان هيكون خير عليكم وعلى باقي اخواته، صدقوني على عيني ان ابني يعيش بعيد عني لكن أنا أب لتمانية وعايز مصلحتهم كلهم.

ساد صمت مطبق على الجميع بينما تتابعهم عيون أبيهم الثاقبة. تبادلوا نظرات الاستفهام وكانت الإجابة واحدة، وهي تنفيذ المهمة.

اكتملت كل خيوط المؤامرة في ذلك اليوم، واتفق عزوز مع حنجل واعتماد وراضية على كل شيء. نام المتآمرون وهم يضمرون الخيانة وقد عرف كل منهم دوره وأقسم أن يؤديه كاملا دون تراجع أو إفشاء للسر. في الصباح، استيقظت صفية مثقلة الجسد عليلة الروح، فليلتها لم تكن طيبة على أية حال. نامت نوما متقطعا لم يخل من الكوابيس المقبضة للنفس

obeikandl.com

والمنهكة للبدن. ذهبت لتوقظ حنجل فلم تجده في فراشه وأخبرها عزوز أنه خرج بالحنطور لتوصيل بعض الزبائن، وطلب منها أن توقظ راضي ليذهب معها بالكارو إلى السوق. بالفعل ذهبت صفية بصحبة راضي ومضت الأمور كما خططوا لها تماما، فالمطلوب هو إبعاد صفية وراضي عن البيت في ذلك التوقيت الهام ليتم كل شيء بهدوء.

. دخل عزوز مسرعا إلى البيت وجمع هو واعتماد وراضية كل متعلقات بهيج. حضر حنجل بالحنطور واصطحب أباه وأخته اعتماد وبهيج وذهب بهم إلى بيت العثمانلي وتركوا راضية بصحبة الصغار بالبيت. وصلوا إلى هناك فطلب عزوز من اعتماد العودة مع حنجل إلى البيت دون بهيج. طالت الجلسة بين عزوز وبهيجة. اتفقا على كل التفاصيل والبنود. نص الاتفاق على احتفاظ بهيجة بالطفل نظير مبلغ شهري قدره مئتا قرش! بالإضافة إلى دفع مبلغ عشرة جنيهات ليقوم الرجل بإسكات زوجته. تم الاتفاق وقبض المبلغ ورحل تاركا ولده في بيت العثمانلي. عاد حنجل بصحبة اعتماد إلى البيت متوجسين خيفة مما سيحدث عند عودة الأم. جلس حنجل جلسته المفضلة أمام عتبة البيت، بينما دخلت اعتماد فانتبذت مكان قصيا وتركت دموعها تنهمر. اقتربت راضية من اعتماد في توجس شديد ووضعت يدها على كتفها قائلة.

... إيه اللي حصل يا اعتماد؟!

.... ما فيش حاجة

قالت الجملة وقد علا بكاؤها فوضعت وجهها بين كفيها وراحت في نوبة بكاء حار. احتضنتها راضية بقوة وهي تحاول أن تخفف عنها قائلة.

obeikandl.com

... إحنا اتفقنا على مصلحة الكل يا اعتماد، ليه بقى بتعيطي؟!

... حاسة إن احنا دبحنا أمنا بسكينة تلمة، اتفقنا كلنا عليها، ضربناها في ضهرها.

قالت راضية بإحساس بارد وقلب جاحد

... إحنا عملنا اللي لازم يتعمل، وبلاش الكلام الكبير ده عشان مش بيأكّل عيش حاف، إحنا خدمنا بهيج خدمة العمر، وخدمنا نفسنا كمان معاه.

... مش عارفة هقدر أبص في عين أمي ازاي؟

.... إحنا ما لنا يا ستي، هي وجوزها يتصرفوا مع بعض، وبعدين هي عارفة ابنها فين ولو عايزاه تروح تجيبه.

شعرت اعتماد بتلك المشاعر المتبلدة فأدركت عدم جدوى الكلام مع راضية. صمتت وظلت تفكر فيما يمكن أن يحدث في هذا اليوم الصعب.

رجعت صفية من السوق فلم تجد بهيج في البيت، وعندما علمت بما فعله زوجها هاجت وقررت أن تذهب بنفسها لتحضر ولدها من هناك، عازمة على إنهاء تلك المسألة تماما مع إبلاغ بهيجة صراحة بأن زيارتها غير مرغوب فيها، وعليها أن تنسى أمر الولد. خرجت تنادي على حِنْجِل فوجدته نائما كالعادة وهو ممسك بسرج حماره. صفعته على قفاه قائلة

... قوم يا عجل وديني عند المرة العايبة اللي اسمها بهيجة

قام حِنْجِل مفزوعا وهو يسر السب واللعن. قبل أن يتحرك الحمار من أمام البيت كان عزوز عائدا يتوكأ على عكازه، كان يغني وكأن شيئا لم يكن! قالت صفية وهى تصرخ:

obeikandl.com

... الواد فين؟!

... ندخل جوا ونتكلم

... بقول لك الواد فين؟ أنا عفاريت الدنيا بتتنطط في وشي

شعر عزوز بخطورة الموقف عندما رأى احمرار عينيها ونفور عروق رقبتها، فقرر القيام بعملية هجوم خاطف وصرخ فيها قائلا وهو ينثر في وجهها رذاذه المقزز

.. يعني انتي عايزة إيه في يومك اللي مش فايت ده؟

... عايزة أعرف ابني فين، ومن غير لف ودوران، ومن غير شغل التلات ورقات بتاعك ده يا تربية الرقاصات

قال بكل حزم وغضب

.. الواد عند الست اللي بتصرف عليه وعلى البيت كله بقالها أكتر من سنة، وكله كان على إيدك، ما فيش حاجة من وراكي، يعني انتي موافقة وراضية وعارفة، يبقى مين اللي بيعمل شغل التلات ورقات؟

أصابتها عباراته في مقتل، فهي بالفعل تعرف كل شيء من البداية، ووافقت منذ البداية. هى شريكة في الجريمة ولا بد أن تعترف بذلك. قالت بصوت خفيض يخرج من روح كسيرة

... يعني خلاص، الواد راح؟

... راح إيه يا ولية يا خرفانة انتي، الست كتر خيرها، شايلة البيت كله، وكمان هتشيل حمل من فوق كتافنا، نقول لها شكرا إنها هتربي الواد في

obeikandl.com

نضافة بعيد عن الفقر اللي احنا فيه، ولا نقل أدبنا؟ وبعدين الواد في الشارع اللي ورانا ونقدر نشوفه في أي وقت

أخرج من جيبه خمسة جنيهات وقدمها لزوجته قائلا

... الولية كتر خيرها بعتالك خمسة جنيه، وكمان هتبعت لك جنيه كل شهر

وهنا استمع كل سكان الحارة إلى وصلة من الردح المطعم بكل الألفاظ التي يمكن أن تقال في تلك المواقف. تطورت الأمور حتى وصلت حد الاشتباك بالأيدي. أدرك حِنْجِل خطورة الموقف فقرر التدخل لتهدئة الأمور، لكن ناله الكثير من الصفع والشتائم من الطرفين فتراجع فورا. مع تطور الأحداث وتصاعدها، تدخل كبار رجال ومعلمي الحارة وقاموا بعمل فصل بينهما. اصطحب الرجال عزوز وأدخلوه داخل المقهى، بينما اصطحبت النسوة صفية حتى باب البيت. بدأ عزوز في البكاء شارحا وجهة نظره، نافيا أن يكون قد فرط في ولده. على الجهة الأخرى، لم تتوقف صفية عن الشتائم والصراخ، واصفة زوجها بكل الصفات الشنيعة التي يمكن أن يوصف بها شخص على ظهر الكوكب. حاول سكان الحارة حل المشكلة وتقريب وجهات النظر بين الطرفين، لكنهم فشلوا بسبب تمسك كل طرف بموقفه. عندما وجدت المرأة زوجها عازما على المضي قدما فيما أراد، بدأت في إلقاء ملابسه ومتعلقاته في الحارة، حالفة بكل أيمان المسلمين أنها ستقتله لو فكر أن يطأ بقدمه داخل البيت. انتهى الأمر بأن قام صاحب المقهى بتجهيز مكان في مدخل بيته ليقيم فيه عزوز مؤقتا.

obeikandl.com

لم تكتف المرأة بذلك، لكنها قررت أن تحل مشكلتها بنفسها وتذهب لتحضر طفلها.

* * *

دَوَّت صرخة راضي في كل أرجاء البيت

... انتوا كده بتكسروا صفية، بتقتلوها يا ولاد عزوز

ركل دجاجة كانت تمر من أمامه تلتقط غذاءها وظل يدور حول نفسه بغضب واضح وكأنه يحدِّث جدران البيت. الفتى الهادئ ذو الخمسة عشر عاما، تحول إلى بركان يغلي، يتحرك بعصبية شديدة في كل الاتجاهات وهو يفرك كفيه. دائما ما يرى الأمور بعين مختلفة عن باقي أسرته، وهذا سر شقائه. لمح اعتماد التي تكورت حول نفسها بجوار الفرن، تستند برأسها على ذراعيها النائمتين فوق ركبتيها وقد شكلت بساقيها مثلثين. ابتسم ابتسامة وجع وسار نحوها ببطء. جثا على ركبتيه قبالتها بعد أن حشر ذيل جلبابه بين ساقيه. رفع رأسها بحنو ليرى وجهها وعينيها الباكيتين. قال بصوت مضطرب يخنقه الألم

... بتعيطي؟! بعد إيه؟!

انفجرت باكية وظلت تكرر نفس الجملة بلهفة وأسف شديدين

... غصب عني.. والله ما كنت أقصد

... غصب عنك؟!

قالها مستنكرا وهو يقلب وجه في السماء ثم أطرق برأسه وقال

إنتي يا اعتماد؟! ده انتي أُم مش أخت! دايما شايفك أمي رغم انك أكبر مني بسنتين بس

زاد نحيبها وهي تحاول استعطافه ليسكت، لكنه أكمل قائلا

... اللي قاعد على عتبة الباب بره ده، عقله على قده، شيال حمول بس، لكن غلبان مش فاهم هو بيعمل إيه.. لكن انتي ياللي شيلتي وربيتي وسقتينا الحنية، إيه اللي مَوِّت قلبك كده؟!

... بقول لك إيه، نقطنا بسكاتك، وكلام الدروايش والمنشدين اللي انت داير وراهم لحد ما خربوا دماغك بيه ده إحنا في غنى عنه

هكذا هاجمت راضية توأمها بضراوة معلنة إصرارها على استكمال ما بدأته.

لم يكن راضي درويشا أو مجذوبا من مجاذيب المنشدين، لكنه شديد التفكير والتأمل في كل ما يحيط به. ضُبِطَ كثيرا وهو شارد يكلم نفسه أو يدندن بأشياء مبهمة غير مسموعة، مما جعله موضع سخرية من أسرته. ترى صفية أن ابنها واصل مع ربه، فكانت كثيرا ما تطلب منه أن يرقيها إذا شعرت بالهم والنكد، وكثيرا ما كانت تطلب منه أن يدعو لهم

... ادعي لنا يا راضي، إنت بينك وبين ربك عمار

دائما ما تلقي على سمعه تلك العبارة وهي تظن ظنا يصل حد اليقين أن ابنها مكشوف عنه الحجاب

اختار لنفسه طريقا مغايرا، فهو الوحيد الذي صمم على دخول الكُتَّاب وكان يبكي ويرفض الطعام والشراب إذا منعوه من الذهاب، فلم يكن عزوز

obeikandl.com

مهتما بأن يتعلم أحد من أولاده قدر اهتمامه بأن يكونوا أقوياء يحتملون العمل. رغم عدم ذهابه للمدرسة، إلا أنه كان عاشقا لدروس العلم التي كانت تعقد في المساجد الكبرى وخاصة في الأزهر، وكذلك كان محبا لحلقات الذكر والإنشاد وجلسات الطرب. علم نفسه بنفسه، فأحب القراءة والثقافة بشكل عام وتطورت قدراته في التفكير وقراءة الأمور، مما صنع فارقا كبيرا بين رؤيته ورؤية أسرته للأمور. فسر كل فرد من أفراد الأسرة ذلك الفارق والرؤية المختلفة، كل حسب تفكيره، حنجل يرى أن راضي (راكبه جن) عندما يحضر يحدثه راضي كأنه يحدث إنسانا موجودا حقيقة.

... الواد ده عايش مع نفسه، ومش سهل خالص

هكذا يرى عزوز ابنه المختلف عن كل أولاده، فهو دائم المناقشة ولا يفعل إلا ما يقتنع به مهما تكن العواقب. أمَّا راضية، فترى أن توأمها مغرور لا يستمع إلا لصوت نفسه ظنا منه أنه يرى ما لا يراه غيره، ترى أيضا أن هناك من أفسد عقله بأشياء لا معنى لها ولا طائل من ورائها، لذلك هاجمته بكلامها الجارح.

ما أن أنهت راضية عبارتها الثقيلة على نفس راضي، حتى التفت ناحيتها ببطء وقد نُحتَت على وجهه ابتسامة صفراء. قام بعد ما ربت بكفه على كتف اعتماد واتجه ناحية توأمه بخطوات ثقيلة وقد تبددت الابتسامة وحل محلها عبوس واضح. قال بحسرة موجعة

... أهلا أهلا نُصِّي التاني، توأمي اللي شاركتني بطن صفية ولبن صدرها

... أيوه أيوه، خُش عليا بكلام المجاذيب بتاعك اللي أنا مش بفهمه ده

أشاحت بوجهها بعد أن أنهت عبارتها وهمت بالابتعاد، لكنه جذب ذراعها فاستدارت ناحيته مرة أخرى. في هذه اللحظة شعر برغبة في التعبير عما يجيش به صدره ولم يصرح لها به قط.

... ولا عمرك هتفهميه، لإنه كلام يتفهم بالقلب وانتي ما عندكيش قلب، لدرجة إني حاسس إننا اتخلقنا أنا وانتي بقلب واحد وكان من نصيبي أنا.

... بالهنا والشفا يا سيدي، اشبع بيه، أصل انت عامل زي صفية بالظبط، قلب كبير وعقل ما فيش.

صفعة على وجهها أسقطتها أرضا، لكنها أسرعت بالنهوض لتشتبك مع توأمها. وقفت اعتماد حائلا بينهما بعد أن صرخت تنادي حنجل ليمنع تطور الأمور بينهما

لم تكن الصفعة بسبب تلك العبارة التي قالتها راضية، لكنها كانت صفعة على وجه كل التصرفات التي قامت بها منذ صغرها. دائما ما كان يصلح ما تفسده بعنادها وقسوتها الشديدة، ودائما ما كان يتعرض للعقاب على أشياء هي التي فعلتها ثم ألصقتها به، يتحمل دون شكوى، فبداخله شيء يدفعه لحمايتها والزود عنها. تمنى دوما أن يتحسن مزاجها السيء ويرق قلبها القاسي، دون جدوى. تمنى لو كانت كاعتماد في حنوها وطيبة قلبها. يشعر أحيانا أنه يتحمل كل أخطائها وكأنها أخطاؤه هو، وأن كل نقص فيها هو نقص فيه لا بد وأن يدفع ثمنه. شعرتْ بكل ذلك واستغلته أسوأ استغلال، دون مراعاة كونه أخوها فضلا عن كونه توأمها. لذلك شعر أن

obeikandl.com

الصفعة وجبت وآن أوانها لأن القادم يحتاج القوة والحسم، فالقادم إمَّا أن يقتل صفية وإمَّا أن يشد عودها مرة أخرى.

تابع الصغار الثلاثة الموقف المتأزم بين إخوتهم الكبار بقلوب مضطربة ووجوه مكسوة بالرعب. وقف حنجل حائلا بينهما وقد خبأ راضية خلف ظهره وفرد ذراعيه في الهواء ليمنعها من التقدم ويمنع راضي من الاقتراب منها، بينما احتضنت اعتماد راضي من الخلف وهي تستحلفه أن يهدأ لتمنعه من الاقتراب من حنجل وراضية حتى لا تحدث كارثة، خاصة وأن راضية أطلقت قذائف السب واللعن على توأمها بينما كان حنجل يهدد راضي ويحذره من الاقتراب وإلا سيواجهه هو بنفسه. حاول راضي، قدر الإمكان، أن يمنع لسانه من النطق بكلمة واحدة، رغم محاولاته للبطش براضية. في النهاية لم يستطع التحمل أكثر فانفجر غاضبا وأفلت من اعتماد بحركة فجائية كادت تسقطها لولا تشبثها بجلباب حنجل الذي تلقاها قبل أن تسقط وضمها لصدره. وقف وحيدا في مواجهة ثلاثتهم فوجه كلامه الغاضب الحاسم للجميع بلا استثناء.

... اللي بيني وبينكم صفية، لو كسرتوها تبقوا قطَّعتوا كل حاجة بتربطنا، بهيج هيرجع لبيته وأمه، بهيجة مش هتكسر صفية طول ما انا عايش.

وجَّه كلامه لحنجل بنبرة حزينة وقد ترقرقت عيناه بالدموع

... إنت يا كبيرنا، لما الست بهيجة تجوزك مرزوقة، خليك فاهم كويس إن مهرها كان أخوك اللي من لحمك ودمك.

ثم إلى اعتماد بوجع مزَّق شغاف قلبه

... زي ما قدرتي تطلعي أخوكي من حضنك وتديه لواحدة عايزة تكسر أمك وتدوس عليها، لازم تقدري تقفي في وش بهيجة عشان تصلحي غلطتك، وإلَّا يبقى مبروك عليكي البيعة، فلوس بهيجة قصاد أمك وانا وبهيج.

تجاهل راضية تماما، فهو أكثر إنسان في الكون يستطيع معرفة ما يدور بداخلها. أنهى كلامه بأن قال للجميع

... الست اللي راحت بيت العثمانلي عشان تجيب ابنها دي، لو رجعت من غيره هيكون خوفها عليكم هو السبب، وهتكونوا انتم السكينة اللي اتغرزت في قلبها.

* * *

بابتسامة عريضة، رحبت بهيجة بصفية وطلبت منها الدخول. لحظات قليلة وكان عصير البرتقال وكوب الماء البارد أمامها. طبطبة رقيقة على الكتف من بهيجة التي قالت بصوت حنون.

.... وحياة حبيبك النبي ياست ام هنداوي ما تتكلمي إلا لما تشربي شوية المايا الساقعة وتخلصي كوباية العصير، أنا حلفتك بالنبي الغالي

ردت صفية بعد تنهيدة وقالت

... اللّٰهُمَّ صلِّ عليك يا نبي

.... بالهنا والشفا يا حبيبتي

قالت الجملة وهي تأخذ الكوب الفارغ من يد صفية لتضعه على الصينية. رجعت بظهرها لتستوي على كرسيها وعقدت ذراعيها. قالت وهي محتفظة بابتسامتها العريضة

obeikandl.com

.... أؤمريني يا ام هنداوي، خير يا اختي

تعرف صفية أن التعامل مع بهيجة ليس بالشيء الهين ويحتاج إلى يقظة كاملة وعقل واع تماما. قررت الدخول مباشرة في الموضوع دون مواربة فقالت.

... إشمعنى انا؟

لم تتوقع بهيجة ذلك الهجوم المباشر من صفية، فقد توقعت أن تسأل المرأة عن ابنها وتطلبه، لكن بما أنها بدأت كلامها بأولا فذلك معناه أن طلبها لابنها آت لا محالة ولكن بعد الانتهاء من الموضوع الأصلي والمشكلة الأساسية. قررت أن تكون مباشرة وصريحة مثل صفية فقالت بكل وضوح

... عشان انتي الوحيدة اللي لسه ما اتكسرتيش قدام بهيجة باندهاش شديد قالت

... بس أنا عمري ما كنت عدوة ليكي

... وعمرك ما كنتي حبيبة

... إحنا فعلا ما قدرناش نكون أصحاب لكن ده مش معناه إننا أعداء، وانا عمري ما أذيتك

بنظرة تحمل كل معاني الحقد والغل قالت بهيجة

... ما فيش حد قدر يإذيني زي ما انتي أذيتيني يا صفية.

أطرقت صفية برأسها قليلا دون أن تنطق بكلمة، فهي تعرف أنها تتعامل مع امرأة حاقدة معتلة النفس، امرأة ظلت طيلة عمرها تفترض معارك وهمية بينهما وتخوض تلك المعارك في خيالها وتُهْزَم فتخرج من المعركة تبحث

obeikandl.com

عن الثأر حتي تفترض معركة أخرى، وهكذا تدور في دائرة وهمية لا نهاية لها، لذلك رأت أن محاولة إقناعها بعكس ما تعتقد وتتوهم لا جدوى منها ولا طائل من ورائها. قررت صفية الدخول في صلب الموضوع الذي جاءت إلى بيت العثمانلي من أجله، فقالت بعد نظرة ثاقبة مباشرة إلى عيني بهيجة.

....الكلام ده ولا هيقدم ولا هيأخر، خلينا في المهم

بابتسامة ثعلبية قالت بهيجة

.... أؤمري يا حبيبة

... ابني

.... ما له يا غالية؟

... عايزاه

... بس كده، من عنيا

نادت بصوت عال لتأمر أم نجاتي بإحضار الولد لأمه

.... يا ام نجاتي، هاتي المحروس بهيج عشان أمه عايزة تشوفه

قاطعتها صفية بحدة قائلة

... أنا مش عايزة أشوفه، أنا عايزة أخده معايا وانا ماشية، عايزاه يرجع بيته وسط اخواته

لم تنطق بهيجة بحرف، وكأنها لم تسمع شيئا. كل ما فعلته أنها أشعلت سيجارة وسحبت نفسا عميقا. كانت تراقب عيون الأم لترى دهشتها لرؤية

obeikandi.com

ولدها في هيئته الجديدة، ملابس جديدة، كف ذهبية (خمسة وخميسة) معلقة في خصلة شعره، قطعة شيكولاتة في يده. كانت تنظر للأم بعين صياد أحكم الفخ لفريسته. قالت وهي تضحك ضحكة مفتعلة

.... صلِّ على النبي بقلبك يا ام بهيج، ما يحسد المال إلا صحابه، تعالى يا بهيج سلم على امك

نادتها بأم بهيج وكأنها تطمئنها أنه ابنها، حتى وهو في بيت العثمانلي. احتضنت الأم طفلها بشدة فسالت من عينيها دمعات ساخنة، بينما استمرت بهيجة في نسج خيوطها الجهنمية لتوقع بالفريسة قائلة

.... أم نجاتي ست زي الفل، نضيفة وحنينة قوي، بتحب العيال زي عنيها، أنا اختارتها مخصوص عشان تاخد بالها من اسم النبي حارسه بهيج، فرشت الأوضة اللي جنبي ليه لوحده، عشان يبقى على راحته

قامت قبل أن تنهي كلامها وسحبت ذراع صفية لتأخذها في جولة داخل البيت.

كانت تسمع عنه كثيرا منذ الصغر، كان الناس يتكلمون عنه كما لو كان أسطورة من الأساطير، لكنها تراه من الداخل للمرة الأولى. ظهر الانبهار واضحا جليا في عينيها المشحونتين بالفقر والهم. تلاحظ بهيجة ذلك الانبهار وترصده بعيني صياد خبير في نصب الفخاخ. تنتظر لحظة معينة يكون للكلام تأثير السحر الذي يصيب إصابة مباشرة. في لحظة معينة، عندما شعرت بهيجة أن الضحية في أضعف حالاتها، قالت بصوت هادئ مشحون بالشجن المصطنع.

.... لو فيه راعي عنده ٨ خرفان هيموتوا من الجوع لإنه مش معاه حق الأكل بتاعهم، قدامه حل من اتنين، يا إما يسيبهم يموتوا، يا إما يبيع واحد منهم عشان يقدر يجيب أكل للباقي، صح؟

انقشعت سحابة الانبهار فجأة من عين المرأة، التفتت لبهيجة قائلة

.... هو حد قال لك ان ابني خروف؟!

.... هو حد قال لك انك هتبيعيه؟!

... كلامك معناه كده

ابتسمت ابتسامة توحي بالسخرية وقالت

.... يبقى انتي مش فهماني كويس

... فهميني

وضعت يدها على كتف صفية وقالت وهى تهزها بلطف

... كل اللي هيحصل إن اسم النبي حارسه هيكون موظف

.... موظف؟! عيل عنده سنة يبقى موظف!

.... آه، وبماهية زي بتوع الميري كمان

شعرت بالدوار من كلام بهيجة، فهو كلام فوق استيعابها، لا تفهمه ولا تعقله. بلعت ريقها وصمتت قليلا ثم قالت باستجداء واضح

.... يا ست بهيجة، الله يرضى عليكي، قولي كلام أفهمه

.... طيب تعالي نقعد ونتكلم بالراحة

obeikandl.com

بدأت بهيجة تتكلم عن وجوب تضحية الأم في سبيل سعادة أبنائها، وأنها لا بد وأن تفرح إذا أتت لهم الفرصة ليحيوا حياة أفضل، كما أن ابنتها اعتماد بلغت سن الزواج ولا بد من تجهيزها لذلك اليوم، وهو ما يحتاج إلى مصاريف باهظة. ذكرتها بهنداوي وحاجته للزواج كي ينجب لها أحفادا يسعدون قلبها. وباقي الأبناء وما يحتاجون، من مأكل وملبس وعلاج عند المرض. نصحتها بعدم الاعتماد على زوجها العاطل الذي لا يقدم ولا يؤخر. استطاعت أن تعبث في كل الجروح دفعة واحدة، وضغطت على كل نقاط الضعف التي تسمح لها بإنهاء المباراة لصالحها بكل سهولة. أخبرتها أن بهيج هو الحل الوحيد لكل تلك المشكلات. طالت الجلسة بين المرأتين، طرف مستمتع بنسج خيوطه حول فريسته، وطرف واقع تحت ضغوط لا يتحملها بشر. لعبت بالورقة الأخيرة التي اختزنتها بهيجة كآخر حيلة، عندما أخبرت أم هنداوي أنها ستقوم بتزويج بهيج من ابنة أخيها آمال، وستترك لهما كل ما تملك ميراثا شرعيا. كانت على وشك أن تضعف وتستسلم، فالفقر له لدغة موجعة في القلب، تسلب الإنسان حق الاختيار، لكنها جمعت شتاتها واستفاقت من تأثير المخدر الذي وضعته بهيجة في كلام منمق ظاهره فيه الرحمة وباطنه جحيم مستعر. قالت وهي تحاول إنهاء المناقشة.

... واضح إنك مش فاهمة حاجة يا بهيجة، مش قادرة تفهمي يعني إيه أم، معلش أصلك ما جربتيش حكاية إنك تبقي أم لإن المحروس جوزك خد في وشه وقال يا فكيك، أو ربنا يعلم إيه اللي حصل له، ولادي أنا أدرى

بيهم من أي حد، ومصلحتهم تهمني أكتر من أي حد، أخرجي انتي بس من وسطينا وسيبينا لنصيبنا.

ضحكت بهيجة ضحكات هيستيرية وهي تدور حول الكرسي الذي تجلس عليه صفية. أمامها مباشرة وقفت وقالت وهي تحاول إيقاف نوبة الضحك.

... واضح كده إن انتي اللي مش فاهمة حاجة خالص يا نور عيني، مش دريانة باللي بيحصل حواليكي واللي داير في بيتك

ابتسمت صفية وهي تداعب خصلة شعر بهيجة وقالت بمكر أنثوي واضح

.... فهميني ينوبك ثواب يا غالية

.... جوزك وولادك زي الخاتم في صباعي، أقول لهم يمين يقولوا حاضر، أقول لهم شمال يقولوا أمرك يا ستنا، إنتي بقيتي عريانة يا صفية

... إنتي بتخرفي يا عيون صفية

أشعلت سيجارة بانتشاء واضح وقالت

... عندك حق يا ام العيال، أنا فعلا بخرف وبتخيل حاجات غريبة، يعني مثلا بتخيل انك صحيتي النهارده ما لقتيش حنجل في فرشته، وعزوز قال لك إنه خرج بالحنطور في شغل، صح ؟

في ذهول واضح قالت

... وانتي عرفتي منين؟!

obeikandl.com

في صدمة كبيرة ودهشة واضحة، استمعت صفية لبهيجة وهي تكشف لها كل تفاصيل المؤامرة التي دبرتها بمساعدة عزوز وحنجل واعتماد وراضية، وكيف نفذها زوج صفية وأولادها لخداعها وإبعادها عن البيت هي وراضي ليتثنى لهم جلب بهيج إلى بيت العثمانلي لتبدأ إقامته الدائمة، كذلك حكت لها عن كل ما يحدث في بيتها، سواء بينها وبين زوجها، أو بينها وبين أولادها. تأكدت صفية من صحة شكوكها، لكنها لم تكن تتخيل أن يشترك أولادها في خيانتها وطعنها من الخلف. دارت بها الدنيا وغافلتها دموعها التي لم تكن تتمنى قط أن تراها بهيجة. قطعت بهيجة حالة الصمت وهي تضغط بقوة على الجرح قائلة.

... دلوقتي جوزك وولادك في جيبي، أحلامهم كلها بقت في إيدي، وهما عارفين إن الطريقة الوحيدة لتحقيق الأحلام دي إن بهيج يعيش معايا هنا. ولو عايزة نصيحتي بلاش ترفضي، لإنك لو رفضتي هتخسري جوزك وولادك التلاتة وهتبقي وقفتي في طريق سعادتهم.

لم تكن تتخيل في يوم من الأيام أن يكون بيتها بذلك الضعف والوهن، ولم تكن تدري أن سوس الفتنة التي زرعتها بهيجة في بيتها قد نخر أعمدة البيت إلى هذا الحد فصار آيلا للسقوط. تخيلت أولادها وهم يقفون أمامها مدافعين عن أحلامهم ومصرين على تحقيقها، حتى لو كان على حساب أخيهم الأصغر. لامت نفسها أشد اللوم أنها غفلت عن أولادها فتلقفتهم بهيجة ووسوست لهم ووعدتهم وزرعت فيهم بذرة الأنانية. بشائر الهزيمة صارت واضحة في الأفق ولا مفر منها، فالحسبة، ببساطة،

obeikandi.com

صارت سهلة لا تحتاج إلى ذكاء كبير حتى تُفْهَم، فأمام صفية خياران لا ثالث لهما، إما قبول الأمر الواقع والتنازل عن طفلها لتربيه سواها وبذلك تتجنب المواجهة التي لا تتمناها مع أولادها الآملين خيرا في بهيجة، وإما رفض التنازل عن طفلها والتمسك بتربيته في حضنها وبذلك تعرض نفسها لخسارة أولادها خسارة لا رجعة فيها ولا مفر منها. صمتت برهة لتفكر وترتب أفكارها. قامت من مجلسها وعلى وجهها ابتسامة غريبة لا علاقة لها بالابتسام من قريب أو بعيد، وصفقت بيدها ببطء وهي تقول

.... براوة عليكي يا بهيجة، لعبتيها صح، واللي يلعب صح يكسب

بفخر واعتزاز شديدين، وبفرحة تغلفها الشماتة الشديدة، قالت بهيجة وهي تنظر من نافذة البيت على قاهرة المعز التي تملأ الأفق أمامها.

اللعب مع اللي زيك متعة، والفوز عليكي حاجة ترفع الراس وتعدل المزاج يا صفية

... لكن انتي نسيتي حاجة مهمة جدا

باضطراب وتوتر قالت

... حاجة إيه؟!

... نسيتي إن أنا صفية اللي عمرها ما بتسيب حقها أبدا، إنتي اخترتي المعركة وانا قبلتها، وربنا يديكي ويديني طولة العمر

بلا مبالاة شديدة قالت بهيجة وهي تضع يديها على كتفَي صفية

... وما له، أدينا بنتسلى

obeikandl.com

أدارت لها ظهرها وتوجهت نحو ولدها الساكن على كتف أم نجاتي. احتضنته بقوة وهي تقلب وجهها في كل أنحاء البيت وكأنها تعاينه بدقة وقالت وهي تخاطب ولدها

... حتى لو رحت آخر الدنيا هتفضل ابن بطني وحتة مني، النهارده بيت العثمانلي أخدك مني، لكن بكرة هترجع لبيت عكاشة العربجي وانت صاحب بيت العثمانلي.

جلست على أحد المقاعد بهدوء وهي تضم بهيج. أخرجت قطعة من نبات الصبار ودهنت بها حلمتي ثدييها، وقربت إحدى الحلمتين من فم الولد فلفظها بتقزز شديد بمجرد أن ذاق مرارة الصبار التي لا تستساغ أبدا. كررت المحاولة مع الحلمة الأخرى فحصلت على نفس النتيجة. أعطت الولد لأم نجاتي، وبعد دقائق أخذته مرة أخرى وحاولت إرضاعه فامتنع وأظهر نفورا شديدا. بعد أن أتمت عملية الفطام، دنت من بهيجة وأعطتها الولد وقالت وهي تنظر إلى عينيها بثبات واضح.

... ربنا يكفيكي شر صفية لما بتحس إن حد من عيالها حصل له حاجة وحشة، أو حد لمس شعرة من واحد فيهم.

ثم وجهت كلامها لأم نجاتي بصوت خفيض

... إنتي أم، وانا حاسة إنك هتعاملي بهيج زي ولادك، قلبي بيقول لي كده.

* * *

obeikandl.com

خرجت صفية من بيت العُثمانلي كسيرة، محزونة لترك ولدها في حضن امرأة أخرى. تعثرت في عتبة الباب، كادت تسقط على وجهها لولا تشبثها بمقبض الباب الكبير. أسندت رأسها للجدار في محاولة منها لالتقاط الأنفاس واستجماع شتات النفس. بعد فترة لا تدري طالت أم قصرت، بدأت في السير ببطء وحذر. كانت تشك في قدرتها على الاتزان ومتابعة الخطوات. جرجرت قدميها على أرضية الشارع الذي استحال إلى أناس يضحكون في شماتة، يسخرون منها، يشيرون إليها وكأنهم يقولون – ها هي المرأة التي تنازلت عن ولدها – شعرت وكأنها عارية وسط الطريق، لا شيء يستر عورتها، فالفقر عورة، والقهر عورة، والضعف عورة، وهى امرأة تجتمع فيها كل تلك العورات. صوت طرقات منتظمة الإيقاع يأتي من بعيد، يخبط خبطا مزعجا في رأسها، تماما كالأفكار التي تتعارك دون هدنة أو أمل في السكون. كان أحد النحاسين يعكف على آنية نحاسية، بمطرقته الصغيرة، يطرق رأس إزميل دقيق ينفذ سنه في جسم الآنية ليشكل فيها أنَّى شاء. نظرت إلى الآنية وكأنها ترى نفسها بين يدي القدر يشكل فيها أنَّى شاء. مرت أمامها صور متتابعة في تداخل عجيب. صورة لعزوز عندما جاء إلى بيت العربجي للمرة الأولى، كان منهك القوى رث الثياب، يومها توجست منه خيفة وأسرَّت إلى أبيها بذلك، لكنه قال أنه شاب مغترب يبحث عن عمل وسكن، وأنه وعده أن يساعده. وصورة أخرى لعكاشة وهو حزين لهروب عزوز إلى شارع محمد علي وعمله كفتوة للراقصات. وصورة ثالثة لعزوز وهو يدافع عنها وينقذها من أيدي جنود الإنجليز بعد أن صفعت

obeikandl.com

أحدهم لمحاولته التحرش بها. وصورة رابعة لعزوز وهو يعدها بأن يكون سندا وحماية لها إذا قبلت الزواج منه بعد أن ترك شارع محمد علي هربا من انتقام الإنجليز وأعلن توبته عن العمل مع الراقصات. وخامسة له وهو غارق في دمائه بعد أن أصابه جنود الإنجليز بثلاث رصاصات في ساقه فتم بترها. وسادسة لعكاشة وهو على فراش الموت يوصي عزوز بأن يكون خير سند لها. عزوز هو محور الحدث وسبب اللعنة، مثال للإنسان المتقلب المتلون، فتارة تراه مثالا للرجولة والمبادئ، وتارة أخرى تراه أبعد ما يكون عن الرجولة والمبادئ. هو، على العموم، لم يحفظ الوصية ولم ينفذ منها شيئا، وها هو يسعى سعيا حثيثا إلى هدم البيت وهو يحسب أنه يحسن صنعا. خطرت ببالها ردود أفعال كثيرة عنيفة ضد زوجها وحنجل واعتماد، لكنها تراجعت عنها بمجرد أن تذكرت نصيحة والدها التي نصحها إياها في الحلم بأن تبدأ برتق الجوال أولا ثم تبدأ بعد ذلك في جمع القمح الساقط على الأرض

مرت من أمام المقهى فرأت حنجل وهو ينقل متعلقات أبيه. مرت دون أن تنظر إليه ولا أن توجه إليه كلمة واحدة، وهو أيضا أطرق برأسه حتى لا تلتقي العيون. دخلت حجرتها دون أن تكلم أحدا وأغلقت بابها ثم ألقت بجسدها على الأرض. عادت من بيت العثمانلي دون ولدها، عادت تحمل حسرتها وضعفها وجرحا غائرا في قلبها بيد أولادها وزوجها. الضربة القاتلة هي التي تأتيك في مأمن من حيث لا تحتسب، والضربة جاءتها من فلذات أكبادها. تسمع صدى بكاء بهيج يرتطم بكل أركان الغرفة فيسري الحنين في قلبها سريان الدم في الوريد. تضغط بكفيها على ثدييها المثقلين

obeikandl.com

باللبن فتعتصرهما. يزيد الاحتقان فتتألم، فالثديان يعلنان رغبتهما الجامحة في التخلص من ذلك الحمل الذي ينوءان بحمله. تتألم فتبكي فتزيد الضغط بكفيها فتتألم أكثر. بدأت في التخلص من اللبن الزائد الذي كان مؤلما في خروجه كما كان مؤلما في احتباسه. لو خُيِّرَتْ في تلك اللحظة بين حياتها وبين أن ترضع بهيج، لاختارت برضاء تام دون ندم أو أسف أن ترضع ولدها حتى يشبع ثم تموت راضية مطمئنة. دسَّت ثدييها في جلبابها حين سمعت صوت طرقات على باب الحجرة. قالت بغضب مكتوم

... مش عايزة أشوف حد، سيبوني في حالي يا إمَّا هوَلَّع في روحي بجاز

... افتحي يا امَّة أنا راضي

بصوت أقل حدة قالت

... سيبني لوحدي شوية يا ابني الله يرضى عليك

... وحياة حبيبك النبي لتفتحي

صلت وسلمت على النبي وهي تفتح الباب دون أن تظهر من خلفه. دخل راضي مثقلا بحمله وشفقته على أمه. قبَّل يديها كثيرا وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيفعل المستحيل ليعيد بهيج إلى حضنها. مسحت رأسه بحنو وقد رقَّت لكلامه فأسعد قلبها المكلوم. طمأنته أن هذا الوضع لن يدوم طويلا، فهي قبلت التحدي الذي فرضته بهيجة، وصممت أن يكون النصر حليفها. قالت وهي تبتسم ابتسامة الواثق

... اسمع يا ضنايا، لو المشاكل جت لك من الباب رُدُّه، لكن لو لفت ودخلت من الشباك، قابلها بصدرك وخدها بالحضن

obeikandl.com

قبَّل يسراها التي يحتضنها بكف يده اليمنى قبل أن يمسد بها خده ثم قال بجدية تغيرت لها ملامح وجهه

... بهيجة لفت ودخلت من الشباك، ولازم نقابلها بصدرنا وناخدها بالحضن، صح يا بندق؟

استطاع أن ينتزع ضحكتها عندما ناداها بهذا الاسم المحبب إلى قلبها، فهو الوحيد الذي يناديها به من حين لآخر، كجده عكاشة تماما. احتضنته بشدة وهي تمسد ظهره بكفيها وتدعو له بالصحة وطول العمر والبركة في الرزق. شجعه ذلك الحضن الذي يحوي الدنيا بحذافيرها على الدخول في صلب الموضوع. قال بعد أن تنحنح

... أبويا لازم يرجع البيت

انتفضت كالملدوغة عند سماعها اسمه، وتغيرت ملامح وجهها بسرعة عجيبة، فقد تمكن منها الغضب وأفقدها حلاوة الحضن، قالت وقد أشاحت بوجهها

... عزوز مش هيدخل بيت عكاشة تاني، وده آخر كلام عندي، واوعى تجيب سيرته تاني

شرح لها بسهولة ووضوح كيف حاربتها بهيجة، وأنها ما كانت لتصل إلى تلك النتيجة التي وصلت إليها لولا لعبها على نقاط ضعف كل شخص على حدة، وأن السبيل الوحيد لإصلاح ما أفسدته بهيجة هو أن يتم استعادة ما سلبته منهم، استعادة عزوز وحنجل واعتماد وراضية، بعدها ستكون عودة بهيج أكيدة لا شك فيها.

obeikandl.com

... على فكرة يا أمي، ما فيش حد في البيت ده ما بيحبكيش، كلنا بنعشقك

لاحظ النظرة الساخرة التي امتلأت وجعا وحسرة فأضاف

... والله كلنا بنحبك، لكن كل واحد فينا بيحبك بطريقته، وكل واحد شايف مصلحتك على قد تفكيره

ابتسم ابتسامة ساخرة أنارت وجهه البشوش وقال وهو يقهقه.

... والله حتى عزوز بيحبك

وكأن عكاشة هو الذي يتكلم الآن، فقد تطابق رأي راضي مع كلام جده في الحلم. هي تثق في كلام أبيها، حتى ولو كان حلما، وكذلك تثق في رأي راضي لاعتقادها السابق بأن بينه وبين ربه عمار. هدأت واستكانت وبدأت تفكر في هدوء، إلى أن وصلت لقرارها النهائي. قالت وكأنها تكلم نفسها

... حاضر يا ابا، هخيط الشوال الأول

خرج الولد فرحا بالنتيجة التي وصل إليها مع أمه، شعر بحماس وشغف شديدين لبداية المعركة المصيرية مع ساكنة بيت العثمانلي. ذهب إلى أبيه يبلغه أن يعود إلى البيت حالا لأمر هام

دقائق وكان عزوز ماثلا أمامها ذليلا. سألها عن ما حدث بينها وبين بهيجة، لكنها تجاهلت كلامه، وكأنه لم يتفوه بكلمة. بعد لحظات سكوت وتفكير منها، وقلق وارتباك منه، ذكرته باليوم الذي أتى فيه إلى الحارة عابر سبيل بلا مأوى. وكيف عطف أبوها عليه وأطعمه وأكرم نزله. ذكرته أن أباها استأجره للعمل معه واعتبره ابنا له. ذكرته أيضا أن أباها وافق على تزويجه من ابنته الوحيدة، رغم فقره وانقطاع أصله. اعترف بانكسار شديد قائلا

obeikandl.com

.... كل اللي قولتيه صح، الله يرحمه كان ونعم الرجل

أكملت، وكأنها لم تسمعه، شارحة كيف تحملت معه الحياة بحلوها ومرها، وكيف احتملت كسله وعدم ميله للعمل وإلقائه المسئولية على كاهلها. استطردت قائلة بكل حسرة

.... لكن تربية الغوازي عمره ما يتعدل أبدا

قال بكثير من الصدق لأول مرة

... عارف إني تعبتك معايا، لكن صدقيني هتغير وهتلاقيني واحد تاني

... هو ده اللي أنا عايزاه، واحد تاني خالص، غريب عني، متحرم عليا دنيا وأخرة، أبو عيالي لكن حرام عليا وانا حرام عليه

.... يعني إيه يا ام العيال؟!

.... يعني هنعيش في البيت ده عشان العيال بس، أنا أرملة وانت أرمل

حاول عزوز أن يسترضيها ويقنعها بالعدول عن قرارها، لكنها رفضت بعد أن قالت له أن ما فعلاه في ولدهما سيظل حاجزا بينهما إلى يوم القيامة. بالفعل كان المبلغ الذي دفعته بهيجة هو عربون لطلاق معنوي بينهما

* * *

دثر الليل قاهرة المعز بعباءته فعادت إلى سكونها الذي تخلعه بمجرد بزوغ أول بشائر الفجر. أُغلقت الوكالات والدكاكين وأُخليت الشوارع للكلاب والقطط. عاد المصلون من صلاة العشاء ولزموا بيوتهم، وازدحمت دكان زغلول الحجش بروادها المعتادين من الفقراء والعمال والحرفيين. الجمالية تغط في نوم عميق استعدادا ليوم آخر من السعي والتعارك مع الدنيا. هدوء يتناسب مع

obeikandl.com

الصمت المطبق على بيت العربجي، فهي الليلة الأولى التي يبيتها بهيج خارج بيته. الكل صامت لا يتكلم، صفية تجلس في حجرتها شاردة مكلومة، تحاول ترتيب أفكارها جيدا لتستعد لما هو قادم. لم تدخل في معركة مباشرة مع بهيجة من قبل، فكل المعارك كانت تدور في خيال بهيجة، والآن جاء وقت المعركة الحقيقية. يتقلب عزوز على الأريكة الخشبية كأن تحته حطبا مشتعلا. تجلس اعتماد في ركن بعيد لا تنظر لأحد ولا تكلم أحدا، بينما تتواصل خيوط الدمع على وجنتيها. افترش راضي قمة الفرن وراح ينظر إلى السماء في تدبر وتفكير عميق. اختفت راضية من المشهد تماما. أما حنجل، فجلس جلسته المعهودة على باب البيت وفي يده سرج حماره، لم يكن نائما كعادته، لكنه كان يبكي في صمت.

تمت

obeikandl.com

خاتمة

الهدوءُ هو سيدُ الموقفِ في الصفحةِ الأخيرةِ من الدفتر. حالةُ من الجمودِ أصابتْ كلَ الشخصياتِ فسكنوا في أماكنهم دون أن يحركوا ساكنا. احتلتْ صفيةُ وبهيجةُ وبهيجُ كلمةَ (تمت). على التاءِ الأولى، جلستْ صفيةُ وقد عقدت ساقيها وحاوطت وجهها بكفيها مرتكزةً بمرفقيها على جانبي الركبتين. على التاء الأخرى، تجلس بهيجة واضعة ساقا فوق الأخرى. أما الطفلُ بهيجُ، فقد تمددَ في تجويف الميم، فبدت كلمةُ تمت وكأنها ميزان، صفية في كفة وبهيجة في كفة، بينما شكَّل الطفلُ رمانةَ ذلك الميزانِ. سكن عزوز بصحبة ولده هنداوي كلمة (شيء)، فجلس عزوز بقدمه الخشبيةِ وهو يتلاعب بنقاط الشين الثلاث ويقذفها في الهواء ناقلا إياها من كف إلى الأخرى، بينما جلس هنداوي مضطجعا على الياء وقد وضع قدميه على الهمزة ملوحا بعصاه يمينا ويسارا. على جانبي الصفحة جلس راضي وراضية متواجهين في تحفز شديد، ومن خلف راضي يقف دكروري ممسكا بنبوته الغليظ في وضع الاستعداد. باقي الشخصيات تشرذمت في كل أرجاء الصفحة، فبحثت كل شخصية عن الكلمة التي تلاءمها لتسكنها أو تختبئ خلف حروفها. ما كان يجمع الشخصيات كلها هو ذلك الصمت وتلك النظرة الثاقبة الثابتة للقلم الملقى تحت كلمة (تمت) وتلك الكف المبسوطة فوق الصفحة وقد استقرت أصابعها كيفما اتفق.

obeikandl.com